بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

كان على رأس المصاعب التي واجهتها أثناء عملي في هذه الموسوعة مسألة استيفاء المصادر والانفاق عليها، وأعترف هنا أنني لدى شروعي بالعمل في هذه الموسوعة لم أكن مقدراً تماماً مقدار النفقات التي سوف أحتاجها لاستيفاء المصادر والحصول عليها، مع تقديري الكامل لحجم العمل ومتاعبه، مع الاستمرار بالعمل الجامعي وبنشاطات ثقافية أخرى متعددة، وليس من الغلو القول بأن ماأنفقته خلال السنوات الخمس الماضية تجاوز مايعادل مائة ألف دولار أمريكي، مع مواجهة لمردود ضعيف نظراً لمايعانيه الكتاب الآن في الوطن العربي، وللأوضاع الاقتصادية المتردية لجمهور القراء العرب، ولأن الناس لايثقون كثيراً بالكتاب الموسوعي قبل أن يكتمل.

وأثناء العمل لاقيت التشجيع من قليل من الناس في موقع المسؤولية السلطوية وفوجئت بموقف بعض الوزراء الأكاديميين في دمشق، لكن لم أعبأ بذلك، فأنا حين شرعت بعملي هذا كان اتكالي على الله واعتمادي المطلق عليه جلت قدرته، وذلك من مصدر ايماني ثابت، ومعرفة مؤكدة بما ذكره محمد بن الحسن الشيباني في كتابه الكسب بأن« هذا العلم دين»، فما من دين شجع على العلم مثلما فعل الاسلام الحنيف، الذي ترافقت بدايته بالقراءة والكتاب والقلم، ولم يعرف التاريخ الانساني أمة اعتنت بالكتاب والعلم مثل أمة الاسلام.

ومادام هذا العلم دين، فقد تكفل الله بحفظه، وعلى هذا الأساس كنت كلما واجهت صعوبة في الحصول على مصدر من المصادر، كانت تنفرج بعد وقت، لكن مع زيادات كبيرة وفوائد جديدة، فلقد سعيت

للحصـول على نسخــة من تاريخ متى باريس، الذي أرخ فيــه من سنة ١٢٣٥ حتى ١٢٧٣، وكان هذا الكتاب قد طبع منذ مائة وخمسين سنة، فلم أجد في لندن مبتغاي، كما لم أقف على نسخة منه في واشنطن، حيث كنت قد بعثت بابنتي إلى الولايات المتحـدة، وقد فتشت هناك فلم تقف على ذكر لهذا الكتـاب، وفي الوقت نفسه كنت كلما زارني أحـد الباحثين من العـالم الغربي أعطيه اسـم الكتاب وأتمنى عليـه مساعـدتي للحصول على نسخة مصورة منه.

وأثناء مؤتمر أكاديمي انعقد منذ عـام في مدينة الرياض التقيت بمدير القسم الشرقي في مكتبـة جامعـة كمبردج، وطلبت مساعـدته، وبالفعل كتب لي عن وجود نسخة من الكتاب في جامعة كمبردج، وأن تصويرها سـوف يكون باهظ النفقــات، وقــال بأن هناك كتــاباً اسمــه« ورود التـاريخ»، يعدّ هو الأصل لتـاريخ متى باريس، وهنا انفتح أمـامي باب معـرفـة جـديدة مع أمل بالحصـول على نسخـة من تـاريخ متى باريس، وبالفعل زارني صــديق قـديم مقيـم في لندن، فأعطيتـه اسـم الكتـاب، وبينت له أن معلوماتي بأنه طبع بالتصوير حديثاً وأنه متوفر في المكتبات، وناولته مايغطي ثمن نسخة مع أجور البريد وزيادة.

وسـافــر الرجل إلى لندن، ومع أنـه قـدم إلى دمشق بعــد ذلك أربع مـرات، لكنه لم يجلب شيئاً معـه، وكــان في كل مـرة يعتـذر بشكل من الأشكال، وحــدث في تلك الآونـة أن تلقيت من ألمانيــا طرداً بـريدياً، عندما فتحته فوجئت بوجـود نسخة مصورة من تاريخ متى باريس فيه، فسررت كثيراً، وقد أرسله صديق حلبي متـزوج من ألمانية، زارني معها، ذلك أنها كانت تعد رسـالة دكتوراه في التاريخ، وبعد مـرور عدة أشهر تسلمت صورة نسخة أخرى من تاريخ متى نفسه من مونتريال في كندا، أرسلتها سيـدة سورية من درعا تعيش هناك، وتحضر رسـالة دكتوراه في التاريخ العبـاسي، ولما يئست من وصول نسخـة من« ورود التاريخ» من

لندن، قـام ابني مصطفى الذي يختص بالطب هناك بتأمين نسخـة لي، وهكذا بات لدي نسخة من ورود التـاريخ مع نسختين من تاريخ متى باريس، ولدى دراستي للكتـابين تبين لي أن« ورود التـاريخ» مصنف في التاريخ بدأ أخباره بالخليقـة، وهكذا حتى سنة ١٢٣٥م، وقد جرى سنة ١٨٤٨ نشر جزء منه تضمن أخباره من سنة ٤٤٧م، حتى نهاية الكتاب، وجـاء ذلك في أربعـة مجلدات، وطبعت هذه المجلـدات في لندن سنة ١٨٤٩، ونسب هذا الكتـاب إلى روجـر أوف ويندوفـر Wendover، الذي لانعـرف شيئاً مؤكـداً عنه غير اسمـه، ونستخلص من هذا الاسم أنه كـان من أهالي بلـدة ويندوفـر في بكنهـام شير، لكـن لاندري سنة ولادته ولادرجة تعليمه ولاتاريخ أخذه بالرهبانية في دير القديس ألبان، ولقد تدرج في المناصب حتى صـار قائد جـوقة المرتلين في ديره، وترقى بعد ذلك إلى مـرتبة رئيس الرهبـان في بلفوير Belvoir ، وهو مـركز رهبـاني ملحق بدير القـديس ألبـان، ولعلـه وصل إلى هذا المنصب أيام الملك جـون— أخو رتشارد قلـب الأسد— وقـد عزل منه بعـد ارتقاء هنري الثالـث للعرش، وذلك بحجة تبـديده لأموال بيتـه الديري، لأنه كان مبذراً.

وقد استقينـا هذه المعلومات من متى باريس، الذي ستكون لنا وقفـة معه في المستقبل، حيث يبـدو أن متى أخذ كتاب« ورود التـاريخ» وأعاد نسخـه مع تعـديلات طفيفـة وذيل عليـه، وأوصل أخبـاره حتى سنة ١٢٧٣، هذا وجـرى فيما بعـد استـدعـاء روجـر أوف ويندوفـر إلى دير القديس ألبان حيث توفي في يوم السادس من أيار سنة ١٢٣٧.

وكتـاب« ورود التاريخ» كتـاب بالغ الأهميـة، فيه مـادة مفيدة جـداً، استقـاها مصنفه من مـؤرخين أوربيين غربيين وشرقيين بيـزنطيين، ومع ذلك وقع اختيـاري على ماتعلق ببدايـة الحروب الصليبية منذ ١٠٩٥م، لدى انعقاد مـؤتمر كليرمونت برئـاسة البابا أوربـان الثاني، وجعلت هذا

الاختيار في مجلدين، ينتهي أولهما مع أخبار سنة ١٢٠٠م، وينتهي ثانيهما مع نهاية الكتاب، ذلك أنه على أهمية مواد الكتاب كلها، إن الأخبار التي عاصرها المؤلف وتشمل خمس عشرة سنة هي الأعظم أهمية وتفصيلاً.

ولم ألجأ في تعاملي مع مواد هذا الكتاب إلى أعمال الإنتقاء، لأن كل مافيه هام بشكل مباشر أو غير مباشر بالنسبة لأحداث الحروب الصليبية، لأن العرب آنذاك، وبشكل محدد منذ أن وحد نور الدين بلاد الشام مع مصر، وقفوا في وجه أوربا كلها، وشكلوا مكافئا لها حتى معركة مرج دابق واحتلال العثمانيين لأرض الشام ثم مصر.

أرجو أن تحصل الفائدة من هذا الكتاب، وأن يمنحني الله القدرة والعون على اكمال مشروع هذه الموسوعة، ولله الحمد دوماً وأبداً، فأفضاله لاتعدّ ولاتحصى، وصلى الله على نبيه المصطفى، وعلى آله وصحبه أجمعين.

دمشق:٢٣ رجب ١٤٢١هـ.

٢١ تشرين الأول٢٠٠٠م.

سهيل زكار

المجمع الذي عقده البابا أوربان بخصوص الحملة إلى أنطاكية

في السنة نفسها، أي في سنة ١٠٩٥م عقد مولانا أوربان مجمعاً في كليرمونت وهي مدينة في أوفرين Auvergne، وأصدر الأوامر التالية المتوجب مراعاتها من قبل الكنيسة كلها:

لايجوز لأي سقف، أو راعي دير، أو أي واحد من رجال الدين، تسلم أية مرتبة دينية من أيدي أمير أو أي واحد من العلمانيين.

لايجوز لأي رجل دين شغل عملين في كنيستين أو في مدينتين.

لايجوز لأي واحد أن يكون أسقفاً وراعي دير في الوقت نفسه.

لايجوز شراء أو بيع أي مرتبة لاهوتية.

لايجوز لأي واحد، مهما كانت مرتبته في الطوائف المقدسة استخدام التجارة الجسدية.

إن الذين حصلوا على منافع بسبب جهلهم للقانون سوف يعفى عنهم.

إن الذين يحتفظون عن معرفة بأوقاف كنسية شروها هم أنفسهم، أوشريت من قبل آبائهم سوف تنتزع منهم.

لايجوز لأي رجل علماني أكل لحم من أربعاء الرماد(أول الصوم الكبير)، كمالايجوز لأي رجل دين أكل لحم من أحد الخمسين حتى الفصح.

إنه في جميع الأوقات سوف يكون الصوم الأول للفصول الأربعة في الأسبوع الأول من الصوم الكبير.

إن الطوائف المقدسة سوف تكون في جميع الأوقات في أوضاع مهيبة،

وإما في عشية يوم السبت أو يوم الأحد، إذا مااستمر الصوم.

إنه مـامن مكتب يكون في وضـع مهيب في سبت الفصح، إلاّ بعـد الساعة التاسعة.

يحتفل بالصوم الثاني في اسبوع أحد العنصرة.

إن جميع الأوقات من الأحد الرابع قبل الميـلاد حتى اليوم الثامن من عيد الغطاس، وكـذلك من أحد الخمسين إلى اليـوم الثامن من الفصح، ومن اليوم الأول من أيام الإبتهـال إلى اليوم الثامن بعـد أحد العنصرة، ومن اليـوم الرابع من الاسبوع، عند غيـاب الشمس، حتى اليوم الثـاني من الاسبـوع، عند اشراق الشمس، سـوف تكون أيام هـدنة(للرب)، ينبغي مراعاتها.

إن كل من يعتقل أسقفا، يعدّ من جميع الجوانب، خارج القانون.

إن كل من يعتقل أي رجـل دين، أو أيا من خـدمهم، سـوف يكون ملعونا.

إن كل من يسلب سلـع الأسـاقفـة أو رجـال الديـن، سـوف يكون ملعوناً.

إن كل من يتـزوج في إطار القرابة الوثيقـة حتى الجيل السابع سـوف يكون ملعوناً.

لايجوز انتخاب أي انسـان إلى الأسقفية، مالم يكن كـاهنا، أو شماساً، أو معاون شماس، أو أن يكون مـن حيث الأصل محترماً بما فيـه الكفاية، وذلك مـالم تكـن هناك ضرورات ملحـة، ويكون ذلـك بترخيص من البابا.

ولايجوز السماح لأبناء الأساقفة، أو لأبناء خليـلاتهم بالدخول بسلك الكهنوت، مالم يكونوا قد تبنوا الحياة الرهبانية أولاً.

إن كل من فـر إلى الكنيسـة أو إلى الصليب، سـوف يكون آمناً على أعضائه، وسوف يحول إلى العدالة، أو يطلق سراحه إذا كان بريئاً.

إن لكل كنيسة عشورها الخاصة، التي لايجوز تحويلها إلى أي آخر.

لايجوز لأي علماني شراء أو بيع العشور.

لايجوز استيفاء رسم من أجل دفن الموتى.

وجـدد البـابا أوربان في هذا المجمـع أوضـاع هيلـد براند Hilde-brand [بابا روما] والحرمـان الكنسي لفيليب ملك الفرنسيين، لأنه متزوج زوجـة رجل آخر، أعني زوجة فولك كـونت أوف آنجو، مع أن الكونت وزوجته السالفة كانا معا أحياء.

موعظة البابا في المجمع حول الحملة إلى الأرض المقدسة

عندمـا شارفت أعمال المجمع— الذي عقـد في تشرين الأول— على الانتهاء، وجه البابا موعظة إلى الناس حول حمل الصليب، وفق الطريقة التـاليـة، حيث قـال:« إخـواني، وأعـز أبنائي، سـواء من الملوك، أو الأمـراء،أو الدوقـات، أو المركيـزات، أو الكونتـات، أو البـارونات، أو الفرسان، وكذلك أنتم الذين في الطوائف، وباختصار أنتم جميعاً، الذين أنقذتم بالآلام الجسـدية، وبسفك دم مولانا يسـوع المسيح، استمعوا إلى شكاوى الرب نفســه، التي وجهت بـالخطاب إليكم جميعـاً، حـول الأخطاء، والأذى الذي لايوصف، الذي أنزل به.

فبعد سقـوط الملائكة، خلق الله العالم، وقسمـه إلى ثلاثة أجزاء هي: أوروبا، وآسيا، وأفريقيـا، ووضع الناس بهم، ليزيلوا ردة سكان السماء، ولكي يتمكنوا مـن استحـواذ الأرض وعبـادته فيهـا مع المخلوقـات الأخرى، وليتمكنوا بعد الموت من الصعود والحكم معه في السماء، لكن بعـد وقت قصير ضل الجنس البشري، بعدم الطاعـة وبالعـدوانية ضـد

الرب، ووصل الأمر إلى حد أنه لم يعد هناك بين الجنس البشري، أحد عمل خيراً، ذلك أنه مما يرعب النفس أن العالم كله بات مليئاً بغير المؤمنين، وبالكفار المجدفين، الذين عبدوا العصي والحجارة، وهكذا إنه لخزي المسيحيين القلائل الذين بقوا، استولى غير المسيحيين على سورية، وأرمينية، ومقاطعات آسيا الصغرى: بيثينيا، وفريجيا، وغلاطيا، وليديا، وكاريا Caria، وبامفيليا، وايرانيا Iraenia، وليشيا Lycia، وكليلية، واحتلوا أيضاً، وتملكوا بشكل أبدي آسيا، الجزء الثالث من العالم، والتي لاقت تقديراً عالياً من قبل أجدادنا مساوياً لامتدادها إلى الجزئين الآخرين، حيث فيها لاقى جميع الرسل— باستثناء اثنين— الشهادة من أجل الرب.

وفي هذه المناطق، يدفع المسيحيون— إذا كان قد بقي أحد منهم— الجزية إلى هؤلاء غير المسيحيين، ومع الشعور بالخزي، نقول إنهم استحوذوا الآن على أفريقيا، التي هي الشطر العظيم الثاني الآخر من أجزاء ذلك العالم وهم منذ ثلاثمائة سنة وأكثر، يتملكون ذلك العالم الذي كان من قبل الحاضن لقدرات رائعة، وموثوقة، وذلك بإعطاء بني البشر الكتابات المقدسة، وبقمع آثار الكفر، كما هو معلوم لجميع الذين يعرفون الأدب اللاتيني.

وفي الجزء الثالث من العالم الذي هو أوروبا، التي نتملك نحن المسيحيون شطراً صغيراً منها، إن ذلك الشطر مهدد بشكل متواصل من قبل الأتراك والمسلمين، هذا وإن اسبانيا وجزر البليارد خاضعة لهم منذ ثلاثمائة سنة، وهم يأملون الآن بالتهام المتبقي، فلقد استولوا على ايليريا Illyricum وعلى جميع المنطقة التي دونها وذلك حتى البحر، الذي اسمه ذراع القديس جورج(البوسفور)، وهم يدّعون ملكية ضريح ربنا، ويبيعون بالمال إلى حجاجنا إذن الدخول إلى المدينة المقدسة، التي ينبغي أن لاتكون مفتوحة لأحد غير المسيحيين لو أن في صدورهم القليل من

فضيلة الايمان.

وعلى هذا، أعدوا أنفسكم للقتال يامقاتلي الشجعان، ومن أجل حملة لاتنسى ضد أعداء الصليب، واجعلوا علامة الصليب تزين أكتافكم، كدليل على أنكم سوف تقدمون العون من أجل نشر المسيحية، ودعوا جهودكم الظاهرية تعبر عن إيمانكم الداخلي، أديروا ضد أعداء المسيح هذه الأسلحة التي حتى الآن لطختموها بالدماء في القتال والمبارزات فيما بينكم، ولتكن غيرتكم في هذه الحملة تكفيراً عن السلب، والسرقة، والقتل، والفسوق، والزنا، وأعمال الحرق المتعمد، التي بها أثرتم غضب الرب.

لتكن لديكم رحمة نحو إخوانكم الذين يسكنون القدس وفي السواحل هناك، وأوقفوا رعونة البرابرة، الذين هدفهم هو تدمير الاسم المسيحي، وبالنسبة لنا نحن، اننا سنثق برحمة الرب القدير، وبسلطان رسوليه المباركين: بطرس وبولص، وبفضائل القدرة التي منحنا الرب إياها، مع أننا غير جديرين بها، ولربط وتحليل جميع الذين سينضمون إلى هذه الحملة بأشخاصهم، وعلى نفقتهم، إنهم سوف يتلقون عفواً عاماً عن جميع ذنوبهم، التي سوف يستغفرونها في قلوبهم، مع الاعتراف بها بشفاههم، وزيادة في توزيع العدالة، نحن نعد هؤلاء أنفسهم بشطر زائد من الخلاص الدائم، وهذا الغفران سوف يشمل أيضاً جميع الذين سوف يسهمون وفقاً لقدراتهم في سبيل نجاح هذه الحملة أو سوف يقدمون نصائحهم، أو مساعدتهم من أجل تقدم نجاحها واستطراده.

وعلى هذا انطلقوا أيها الفرسان الشجعان، واضمنوا لأنفسكم الشهرة في العالم، وتخلوا عن جميع المخاوف من الموت وانفوها من عقولكم، لأن آلام هذا العالم لايمكن مقارنتها مع المجد المستقبلي الذي يتجلى لنا، وهذه هي أوامرنا لكم أيها الحضور، وهذه هي تعليماتنا حتى توصلوها إلى الغياب، ونحن نعين الربيع المقبل كموعد لبداية عمليتكم، والرب

سوف يرافقكم في زحفكم، والموسم السنوي سوف يكون موائماً في كل من وفرة الثمار وفي جودة الأنواء.

والذين سوف يموتون سوف يجلسون في قاعة الضيوف السماوية، والذين سوف يبقون أحياء سوف يرون بأعينهم ضريح ربنا، وسعداء هم المدعوون إلى هذه الحملة، لأنهم سوف يتمكنون من رؤية الأماكن المقدسة التي تحدّث فيها ربنا مع بني البشر، والذين من أجلهم قد ولد، وصلب، ومات، ودفن، وقام ثانية».

ولقد كانت هذه كلمات أوربان، حيث أمر بعدها أساقفة الكنيسة الذين كانوا حضوراً بالعودة إلى أوطانهم، وتحريض الناس الذين تحت عهدتهم باخلاص وفهم، للمشاركة في الحملة المتقدم ذكرها.

حول أسماء النبلاء الذين حملوا الصليب وحول اجماعهم

عندما سمع رجال الدين والشعب كلمات الخطبة المذكورة أعلاه، رددوا بصوت واحد الموافقة على الموعظة، وأعلنوا عن استعدادهم للذهاب والقيام بالحج، ومع هذا قام بعض النبلاء الذين كانوا في المجمع، فألقوا بأنفسهم وجثوا على ركبهم أمام البابا، وكرسوا أنفسهم وكل مايملكون لصالح المسيح، وكان الأول بين هؤلاء أدهمر أسقف بوي، الذي تلقى من يد البابا علامة الصليب، وقد جاء على الفور وليم أسقف أوراشيا Aurasia ، وحشد من الآخرين من جميع الأعمار والأوضاع، وبعد انتهاء أعمال المجمع، عادوا جميعاً إلى الوطن، وانتشرت شهرة الذي حدث خلال العالم، ولم تقتصر إثارتها على البلدان المتوسطية بل شملت أيضاً جميع الذين كانوا في الجزائر النائية، أو الذين كانوا في الشعوب البربرية، ممن سمعوا باسم المسيح.

وكان من بين الذين حملوا الصليب: هيوج الكبير، أخو فيليب ملك فرنسا، وغودفري دوق اللورين، وريموند كونت طولوز، وروبرت

دوق نورماندي، وبوهيموند، الذي كان من أبوليا من حيث المسكن، إنما كان نورمانداً من حيث المولد، وروبرت كونت فلاندرز، وستيفن كونت تشارترز، وبلدوين ويوستاس، أخوا الكونت غودفري، وبلدوين ثاني هو بلدوين أوف بورغ، وغارنر كونت ديجرس Degres، وبلدوين كونت أوف أمانسي Amanci، وايسوارد Isoard كونت ديي Die، ووليم كونت أوف فوري Foreis ، وستيفن أيرل أوف ألبمارل Albemarle، وروتو كونت بيرشي Perche ، وهيوج كونت أوف سينت بول، وهنري دي أسكا Asca ، ورالف دي بانغنتياك Bangentiac، وهيبراندي بوساك، ووليم أمون Amauen ، وغنتون دي بار، وغاست دي بدري Gast De Bederi ، ووليم دي مونت بيسولان Pessulan ، وجيرالد دي كيريسياك Ceresiac ، وروجردي بارنيفل Barneville وغي دي بوسس Possessa ، وغي دي غارلانديا Garlandia ، وتوماس دي سبريا Sprea ، وغالودي شومنت Chaumont، وستيفن كونت أوف بلوا، وكان هؤلاء جميعا هم مقدمي وقادة الفرسان والآخرين من المؤمنين، الذين انتظروا الوقت المناسب للانطلاق، وكانوا مستعدين مع كتل بشرية كبيرة من الرجال المسلحين للالتحاق بالأعمال العسكرية الصليبية، وبشكل خاص لتكريس أنفسهم لهذا الحج من أجل اسم المسيح.

حول الرؤيا التي عملت لبطرس الناسك بخصوص المغامرة المسماه أعلاه

لقد أثيرت هذه المهمة العسكرية كثيراً بوساطة أعمال التبشير التي تولاها بطرس الناسك، والحديث عن هذه الأعمال لن يكون بدون ثمار، من أجل فائدة الذين لم يسمعوا بها قط، ولاسيما الرؤيا الربانية التي عملت له، فقد كان هناك راهباً اسمه بطرس، يمارس أعمال النسك،

وكـان قبل قليل من وقوع هذه الأحـداث قد ارتحل إلى خـارج فرنسـا، ذلك أنه كان مرتبطاً بعهد الحج إلى الأرض المقدسة، وكان عندما وصل إلى مقصده، دفع الرسم الذي كان مفروضـاً بموجب القانون الذي تولى تنظيم قبـول الحجاج، ودخـولهم المدينة، وقـد تسلم مقـر إقامـة في بيت أسرة مسيحية، وسمع من مضيفه رواية عن الأوضاع التعيسة للمؤمنين الحقيقيين، الذين أقاموا تحت سلطة المسلمين، وتأيد الذي سمعه هنا فيما بعد بما رآه شخصياً بأم عينيه.

وقد سمع بأن سمعان بطريرك المدينة، كـان رجلاً متديناً وكان يخاف الرب، وقـد ذهب إليـه وتحدث إليـه كثيراً، وكـان هـذا البطريرك— استخلاصـاً من كلمات بطرس— رجلاً واعياً، وقـد بين له جميع المعاناة التي يتحملهـا شعب الرب، الساكنين في تلك المدينة، وتعـاطف بطرس مع التعـاسة التي عـانى منهـا إخوانه، ولم يستطع منع نفسـه من البكاء، وقد قال للبطريرك:« كن متأكداً لوأن الكنيسـة الرومانية وأمراء الغرب، أمكن إعلامهم بهذه الأوضاع والأحـوال المأساوية من قبل من يمكنهم الاعتماد عليه، لكان من المؤكـد بذلهم الجهد لإيجاد عـلاج لماتعانون منه، وبناء عليه اكتب رسـالة إلى السيد البابا، وإلى الكنيسة الرومـانية، وأيضاً إلى ملوك وأمـراء الغرب، وأنا— ليعينني الرب، ولأجل إنقـاذ نفسي— سوف أتحدث عن ضخـامة عـذابكم، وسوف أدعـو الجميع وكل واحد للاسهـــام في سبيـل تخليصكم»، وقـــد أفـــرح هذا الكلام البطـريرك والآخـــرين الذين كـــانوا حضـوراً، ووضع في يـد بطرس، مع كثير من الشكر— الرسالة التي طلبها.

وحـدث أنه في أحـد الأيام، أن كـان رجل الرب هذا قلقـاً أكثـر من المعتاد، وراغبا بالعودة إلى بلده، حتى يتمكن من تنفيذ المهمة التي تعهد بها، وقـد وجـه تفكيره نحو نبـع الرحمة، فدخل إلى كنيسـة قيـامـة ربنا، حيث أمضى الليل في صـلاة وصـوم، وأخيراً، وقد وجـد نفسـه منهكاً

تمدد فوق البلاط ليتمتع بقليل من النوم، ومأأن كاد يغمض عيناه حتى رأى ربنا يسوع المسيح، واقفاً أمامه، وهو يحثه على تنفيذ المهمة المذكورة أعلاه، ويقول له:« انهض يابطرس، وأسرع، ونفذ بدون خوف، الذي عهد به إليك، ذلك أنني سوف أكون معك، لقد آن الوقت لتطهير الأماكن المقدسة، ولنجدة عبيدي والتفريج عنهم في تعاستهم».

واستيقظ بطرس وهو مطمئن بالرؤيا الربانية، ورحب بالنصيحة الربانية، ولم يعد يشعر بالخوف والأسى بل قدم صلاتاً، ثم بادر مسرعاً نحو شاطىء البحر، وصعد هنا إلى ظهر سفينة، ووصل بعد رحلة موفقة إلى باري، وتابع من هناك إلى روما، حيث وجد البابا أوربان، فأعطاه رسالة البطريرك، وقدم له رواية متوازنة وصادقة حول التعاسات التي يعاني منها الذين في الأرض المقدسة، واستقبله البابا بلطف، ووعده أنه سوف يتعاون معه في الوقت المناسب باخلاص عظيم، وسافر بطرس خلال ايطاليا كلها، ثم قام بعد أمد بعبور الألب، وتمنى على أمراء الغرب بكل اخلاص أن لايسمحوا للأماكن المقدسة— التي عينها الرب لتتشرف بحضوره—بالبقاء مدة أطول وهي ملوثة بدنس غير المسيحيين، ثم إنه لم يرتح راضياً بهذا، بل إنه شجع الناس والذين كانوا أدنى مرتبة، على القيام بهذا الواجب المقدس نفسه، وهكذا قام بطرس مع مرور الأيام، مع حشد كبير من الناس، كان قد جمعه بعد كثير من المتاعب من فرنسا والامبراطورية، بالالتحاق بالحملة المسلحة، وسعى باخلاص في سبيل مصالح الصليب.

حول وولتر الذي كان الأول بالانطلاق إلى الحج

في سنة ١٠٩٦م، وفي شهر آذار، وفي اليوم الثامن من ذلك الشهر، انطلق وولتر الذي لقبه سان— أفوير Sans-avoir (والمعروف بالمعدم)، وكان رجلاً من أصل نبيل، انطلق مع حشد كبير من المشاة

المسلحين، وقد كان معه قليلاً من الفرسان، كما أنه كان الأول فيمن حمل الصليب، في الانطلاق بالحملة، ومن ثم عبور مملكتي ألمانيا وهنغاريا، والوصول إلى نهر ماروك Maroc ، وعبر هذا النهر، فدخل إلى بلاد بلغاريا، ووصل إلى مكان كان اسمه بلغريف Belgrave ، حيث كان بعضاً من أتباعه قد بقيوا في مالا— فيلا Mala-villa[سملين Semlin] من دون أن يعرف هو بذلك، وذلك من أجل شراء بعض المؤن، حيث ألقي القبض عليهم من قبل البلغار، وجردوا من ثيابهم، وعراهم البلغار وجلدوهم، وبعد ذلك أعادوهم إلى رفاقهم، وبناء عليه طلب وولتر إذنا من دوق بلغاريا لشراء ضروريات وحاجيات، وعندما لم يحصل على طلبه أقام معسكره أمام مدينة بلغريف، وعانى هنا من خسائر عظيمة، لأنه لم يستطع ضبط جيشه الذي كان بحاجة ماسة إلى المؤن، لأنهم عندما لم يسمح لهم بشراء أي شيء من بني البشر الأشرار هاجموا القطعان والأسراب العائدة للبلغار، وحملوها معهم إلى معسكرهم، ولدى سماع البلغار بهذا حملوا أسلحتهم لإنقاذ ماسلب منهم، وهزموا النهابين، وألقوا النار في المعسكر، الذي إليه هرب مائة وخمسون من أجل الحماية، وقد أحرقوهم جميعاً، أماباقي الرجال فهربوا.

ثم وصل وولتر بعد هذا مع جيشه إلى سترالايس Stralice التي كانت عاصمة داشيا الداخلية وقدم شكوى إلى حاكم المدينة ضد الأذى الذي اقترف بحق جيش الرب من قبل البلغار، وبعدما حصل على ترضية كاملة لما لحق به من أذى، استأنف سيره من هناك نحو المدينة الملكية(القسطنطينية) حيث مثل في حضرة الامبراطور ألكسيوس، وطلب منه السماح له مع جيشه بالبقاء قرب المدينة، حتى وصول بطرس الناسك، مع إذن عام بالبيع والشراء ووافق الامبراطور ومنحه هذا الامتياز.

حج بطرس الناسك

وكـان التـالي لوولتر بالانطلاق للقيـام بـالحج، هو بطرس الناسك، الذي ارتحل عبر اللورين، وفـرانكونيـا، وبافـاريا، والنمسـا، ووصل إلى حدود هنغاريا مع أربعين ألف رجل مسلحين ، ومن هناك تابعوا السير نحو مالا— فيلا، وهناك سمعوا بالخسـائر الكبيرة التي عانى منها أتباع وولتر هناك، فحملوا سلاحهم ونهبوا ماكـان العدو قد سلبه وعلقه على أسوار المدينة كـرموز على مانالـه من الصليبيين، ذلك أن ذلك المنظر قد مـلأهم بغضب محق، ولذلك حملـوا أسلحتهم واقتحمـوا المدينة، وقتلوا بالسيف أو أغـرقـوا بالنهر جميع السكان تقـريبـاً، وبعـدما استـولوا على المدينة على هذه الصورة، مكثوا فيهـا لمدة خمسة أيام، لكن بطرس عندما سمع بأن ملك هنغاريـا كان يحشد قـواته للانتقام للمـذبحة التي نزلت برعـاياه، أعطى أوامره إلى الجيش لإعتماد كل سرعـة في عبور النهـر مع القطعان والأسلاب التي أخذوها من المدينة، وهكذا وصلوا بعد زحف استمر مـدة ثمانية أيام إلى أمـام مدينة نيش Niz الحصينة، وعبروا النهر، ونصبـوا معسكرهم هناك، وعندمـا حلّ وقت المغـادرة، زحفت الكتلة الأسـاسية من الجيش نحـو الأمـام، لكن بعضاً من الأتبـاع الحمقى من أصل ألماني انفصلوا عن البقية، وألقوا النار في سبعة أرحاء كانت قائمة على مقربة من الجسر الذي تقدم ذكره، وكـان تعداد هؤلاء حوالي المائة، وقام هؤلاء في سبيـل ارضاء جنونهم، فأضـافوا إلى تعاستهم، بـأن ألقوا النار بالطريقـة نفسهـا في بيـوت بعض الناس، التي كـانـت قـائمـة في الأرباض، ثم إنهم بادروا مسرعين للالتحـاق بالجيش الذي كـان تقـدم أمامهم، لكن سيـد تلك المنطقة، وقد أغضبه ماحـدث، استدعى شعب المدينة، وشجعهم على حمل السـلاح، وانطلـق على الفـور مع كتلة كبيرة من الناس ليتمكن من اعتقـال النهـابين، قبل التحـاقهم ببقيـة الجيش، وعنـدما وصـل إليهـم هاجمهـم بشـدة، وجعل معظمهم طعمـة

للسيف:

وكـان بطرس جاهلاً تمامـاً بجميع هذه الحوادث، لأنه كان مشغـولاً بقيادة الجيش الذي تقـدم نحو الأمام، لكنه عندمـا سمع بالذي حدث، عقـد اجتماعاً مع كبـار ضباطه، وبناء على نصيحـة منهم رجع إلى المكان الذي تمددت فيـه جثث الذين قتلوا، ولقـد بكى لدى رؤيتـه لجثثهم، وكـان راغبـاًفي معـرفـة سبب مثل هذا العمل الدمـوي، وفي سبيل هذه الغاية بعث رسولاً إلى سادة المدينة، وعلم منهم أن مـاحدث جاء نتيجة غضب محق لسكان المدينة، وهنـا تهورت مجمـوعـة قليلة من الحجـاج بمحاولة الانتقـام فأيدتها فرقة كـاملة أثيرت بالرغبة بالانتقـام لما حدث لهم، وكـان تعـداد المتهـورين المقترفين لعمل أحمق ضـد المدينة حـوالي الألف رجل، وعندها خـرج بعض سكان المدينة للتصـدي لهم، فأعقب ذلك معركة قاسية جداً، وقد قتل خمسمائة من رجالنا على الجسر، وغرق البقيـة لأنهم كانوا يجهلون مخاضـات النهـر، ولدى وقوع هذه الهزيمـة القـاسية ومقتل رفـاقهم، غضب رجـال جيش بطرس، وبادروا إلى حمل سلاحهم ومن ثم إلى القتال، فكان أن جرى قتل حوالي عشرة آلاف من الحجاج، واستولى البلغار على أموال بطرس، وذلك مع عربته وكل شيء كان لديه.

وبعد مضي أربعـة أيام عاد جمع الذين هربوا وانهزموا، وكـانوا حوالي الثـلاثين ألفاً، فأعـاد هؤلاء تجهيـز أنفسهم لاستئناف رحلتهم، وبالفعل تابعوا سفرهم، لكن مع كثير مـن المصاعب، وبعد زحف سريع وصلوا إلى القسطنطينية، وهنا قـابل بطرس الامبراطور، وبناء على ذلك أقام مع جيشه عدة أيام، ثم إنه— بناء على أوامـر الامبراطور— عبر البوسفور، ودخل إلى بيثينيـا، التي كـانت أول المقـاطعـات الآسيـوية، ومن هناك وصلوا إلى مكان قائم على البحـر نفسه اسمـه سنتوث Cinitoth حيث نصبوا معسكرهم.

موت الثلاثين ألفاً من الصليبيين

وقام هذا المكان على حدود المملكة التركية، وكان فيه وفرة من كل شيء، خاصة بالمؤن، وعندما مكثوا هناك لقرابة شهرين، شرع قسم من هؤلاء اللاتين، وكان تعدادهم عشرة آلاف رجل، باجتياح المنطقة وسوق القطعان والأسراب والاستيلاء عليها، وقد زحفوا في صفوف عسكرية نحو مدينة نيقية، ثم عادوا إلى معسكرهم مع كثير من الأسلاب، ودون أن يفقدوا رجلاً واحداً، وعندما شاهد الشطر الألماني في الجيش كيف أن اللاتين قد نجحوا في تلك المغامرة، قرروا القيام بمحاولة مماثلة، وبناء عليه انطلق حوالي عشرة آلاف منهم بصحبة مائتي فارس نحو مدينة نيقية، ومنها إلى بلدة كانت على بعد نحو أربعة أميال منها، وقاموا بهجوم عنيف جداً عليها، وقد تغلبوا على جميع من تصدى لهم من السكان، واستولوا على البلدة، وقتلوا جميع من كان فيها من سكان، وحصلوا على أسلاب كثيرة، وشحنوا الحصن، وأعجبوا بخصب المنطقة وطبيعتها المرضية، ولذلك قرروا الإقامة هناك حتى وصول الأمراء، لكن حدث أن(قلج أرسلان بن) سليمان، الذي كان صاحب المنطقة، قد سمع بأن الجنود الألمان قد قرروا البقاء والاحتفاظ بالبلدة، فزحف إلى هناك بكل سرعة، وحاصر الحصن واستولى عليه عنوة وجعل طعمة للسيف كل من وجده فيه، وفي الوقت نفسه انتشر الخبر في المعسكر بأن العساكر الألمان قد وقعوا في أيدي(قلج أرسلان ابن) سليمان، وعندما باتت هذه الحقيقة معروفة، هب الجيش إلى السلاح على الرغم من إرادة قادته، وتوفر ساعتها خمسة وثلاثين ألفاً من الرجالة وخمسمائة فارس، فزحفوا على تعبئة قتالية نحو نيقية، وقد وجدوا(قلج أرسلان بن) سليمان مع حشد هائل من التركمان في السهل، وقد هاجموه بكامل القوات، ولكن الأتراك الذين عرفوا أنهم يقاتلون في سبيل حياتهم، قاوموا بعنف، وتمّ الضغط بشدة على

الصليبيين، حتى أنهم لم يعودوا قادرين على تحمل ثقل القتال، ولذلك مزقوا صفوفهم وتخلوا عن مواقفهم، وشرعوا بالفرار، وأخذ الأتراك في الوقت نفسه بمطاردتهم وألحقوا بهم خسائر وهزموا الجيش، وهناك سقط في تلك المعركة: وولتر المعدم ، ورينالد دي بريس Breis ، وفولتشر أوف أورلين، وثلاثين ألفاً من الرجالة، وخمسمائة من الفرسان الذين خرجوا من المعسكر، ولم ينج أحد تقريباً من القتل أو من الأسر، وهكذا كانت أحداث هذه المعركة، معركة عدم الطاعة ، التي قاتل فيها الناس بتهور عظيم، مراغمة لأوامر قائدهم الذي نصح جيشه الجاهل بالبقاء منتظراً عند القسطنطينية حتى وصول الأمراء الذين كانوا قادمين خلفه على الطريق، والذين كانوا أكثر حكمة من رجال هذا الجيش أنفسهم، وأعظم خبرة في المسائل العسكرية.

هذا ولم يقتنع[قلج أرسلان بن] سليمان بالنصر الذي ناله، فهاجم المعسكر بحدة، وجعل الذين فيه طعمة للسيف من دون رحمة، من شيوخ وصغار، ورهبان ورجال دين، وعقيلات، وفتيات، وأطفال، علما بأن بعضهم قد توسط عمرهم أو شكلهم لصالحهم، فأنقذت حياتهم، ليكونوا عبيداً أرقاء مدى الحياة، وكان على كل حال، يوجد على مقربة من المعسكر إلى جانب شاطىء البحر، قلعة قديمة غير مسكونة، إليها فرّ ثلاثة آلاف من الحجاج للنجاة من الموت، ، وألقى[قلج أرسلان ابن] سليمان الحصار فوراً عليها، لكن الذين كانوا فيها دافعوا عن أنفسهم بشجاعة، وتمكن بالوقت نفسه بطرس من المثول بحضرة الامبراطور، واقناعه بعد كثير من التوسلات لأن يرسل جيشه لانقاذ الذين بقيوا من الناس، وعندما عمل هذا بقي بطرس في القسطنطينية مع بقية الجيش، ينتظرون وصول الأمراء.

حول مقتل بعض الحجاج غدراً

ثم جاء بعد هؤلاء للحج كاهن ألماني اسمه غودرشال -Go

derschal، امتلك أعطية الاقناع، ولذلك قاد حـوالي الخمسة عشر ألفاً من الرجـال من الممالك الألمانيـة، إلى هنغـاريا، وقـد نال هؤلاء بناء على أوامر الملك امكانية الحصول على المؤن وفق شروط مناسبة، من البلغار، لكنهم أفسـدوا هذا الامتياز، وغـرقوا بالسكر، وغضب الملك محقـاً تجاه هذه الأعمال، ودعـا قومـه إلى السلاح وإلى الانتقـام منهم، وعملوا على الانقضـاض على هؤلاء الحجاج الآثمين عند بلغـريف، وعندمـا رأوهم قد استعدوا للقيام بالمقاومـة، لأنهم كانوا رجالاً شجعاناً، ومعتادين على استخـدام السـلاح، قرروا الايقـاع بهم غـدراً وليس عن طريق القتـال، ولهذه الغاية، أرسلوا رسلاً إليهم، وخاطـب هؤلاء غودرشال مع القادة الآخـرين وفق العروض التـاليـة:« لقد وصل إلى مسـامع مـولانا الملك بأنكم قد ألحقتم أضراراً بالغة بشعبه، وجازيتموه بالنكران والشر مقابل الاحسان، هذا ويعرف ملكنا بشكل جيد بـأنه يوجد بينكم رجالاً أتقياء ويخافـون الرب، وأن هذه الأفاعيل التي بحق أثارت غضب الملك، قـد اقترفت ضـد ارادتهم، ولـذلك رغبـة منه، ولكي لاتلقـى عليكم جميعـاً جريمة قلة فقط، قد قرر عـدم ملاحقة الحجاج في الوقت الحاضر، لكنه يطلب منكم، أن تقوموا بأنفسكم بتسليم عتـادكم وسلاحكم، وتضعوه بين يديه بشكل غير مشروط، وإذا لم تفعلوا ذلـك، إنكم لن تنجـوا من الموت، بما أنكم لاتمتلكون القدرة على النجاة».

وعلق غودرشال آمـالاً كبيرة على الرحمة الملكية، فأقنع الجيش— بعد صعوبات جمة— بتسليم أنفسهم مع جميع أسلحتهم وعتادهم ووضعهم تحت سلطة الملك، وبذلك أرضى شكاويه لكـن ماأن حـدث هذا حتى واجهـوا الموت بدلاً من الرحمة، فقـد انقض هـؤلاء الناس الخونة على الجيش، الذي كان أفـراده قد جردوا من سيـوفهم، ودون أن يميزوا بين المتديـن وبين الشرير، اقترفوا مذبحـة عامـة، ولوثوا المنطقة كلهـا بالدم، وبجثث القتلى، وقلة منهم نجـوا— على كل حـال— من الخطر العـام،

وعادوا إلى الوطن، وقصوا هناك خبر مقتل رفاقهم الحجاج، ونصحوا باخلاص الحجاج الذاهبين بأن يضعوا دوماً أمام أعينهم غدر تلك الأمة الشريرة وأن يكونوا متنبهين وحذرين أثناء تنظيم خط زحفهم.

حول بعض الحجاج الذين عذبوا اليهود ثم قتلوا بعد ذلك

وفي حوالي الوقت نفسه تجمع من بلدان الغرب وخرج حوالي المائتي ألف من الرجالة مع نحو ثلاثة آلاف من الفرسان، كان بينهم من النبلاء: توماس دي فيريا Feria، وكلا من رنبولد دي فندول Vendole كونت هيرمان، ووليم الملقب بالنجار، وكان هؤلاء جميعاً مشحونين بروح الجنون، وهاجموا اليهود في البلدان والمدن، التي وقعت على طريقهم، وقتلوا عدة آلاف منهم، ووقع هذا بشكل خاص في مدن مينز، وكولون، وقد كان هناك أيضاً كونت اسمه ايميكو Emico، وكان نبيلا مشهوراً في تلك المناطق، وقد انضم بنفسه إلى تلك الجماعة، وشارك في أعمالها الشريرة وحثها على اقتراف جرائمها.

وعبر هؤلاء القوم من خلال فرانكونيا وبافاريا، ووصلوا إلى حدود هنغاريا، حيث اعتقدوا أنهم يمكنهم الدخول إلى تلك المملكة بحرية كما يريدون، وقد أرغموا على التوقف عند ميزبورغ Meezeburg، لأن مدخل الجسر كان مغلقاً في وجوههم، ذلك أن ملك البلاد قد أمر بوجوب منعهم من الدخول إلى أراضيه، صدوراً عن الخوف، أنه إذا ماسمح لهم سوف يسعون للانتقام من أفراد شعبه، لقيامهم بقتل أتباع غودرشال، وبناء على ذلك إلتمس الحجاج من الملك السماح لهم بالمرور بسلام، لكن ذلك لم يمنح لهم بكل اصرار، ولهذا تحدثوا واتفقوا على نهب وتخريب أراضي الملك الواقعة قرب الأنهار والسباخ، واحراق مناطق الضواحي ، وانزال كل مايمكنهم من اضرار به.

وعندما حدث في أحد الأيام، أن كـان هناك سبعمائة من رجال الملك كـانوا مبحريـن هناك بغرض حماية المنطقـة من هجمات الحجـاج، فجأة وقع هؤلاء في أيدي الأعداء، الذين عرضوهم على السيف، فقتلوهم إلاّ قلة منهم، أنقـذوا أنفسهم بالتخفي بين القصب والمستنقعـات، وتحمس الحجاج بهذا النجاح، فاقترحوا الآن القيام بحصار البلدة، بتشييد جسر، وشق طريقهم إلى داخل المملكـة بالسيـوف، وبناء عليـه، جـرى تشييـد جسور، مـدت حتى أسوار البلـدة، وكان إصرار الحجـاج كبيراً إلى حد أنهم كادوا أن يشقوا طريقاً لهم إلى البلدة، وأن البلدة صارت في أيديهم، لكن حـدث فجأة أن أصيبـوا بالرعب، وشرعـوا بالفرار، دون معـرفـة السبب، وهكذا كان نتيجة لما اقترفـوه من ذنوب أن أداروا ظهورهم إلى العـدو، الذي استقى الثقـة من رعبهـم، وطاردهم بشجـاعـة، وجعلهم طعمة للسيف، بعدما حرمهم من الأمل بالنجاة، وهرب الكونت اميكو مع عساكره بشكل فوضوي، ورجع بصعوبة إلى بلاده، كما وصل النبلاء الذين ذكـرناهم أعـلاه إلى ايطـاليـا، وحـاول بعضهم النجـاة بالطريقـة نفسها، وأخذوا طريقهم بحراً إلى ديراخيوم Dyrrachium ووصلوا إلى ساحل بلاد الاغريق.

رحلة الدوق غودفري ورفاقه في الحملة الصليبية

في السنة المتقـدم ذكـرها، أي سنة ١٠٩٦م، وفي شهـر آب، في اليـوم الخامس عشر من الشهر، قـام غودفـري، دوق اللورين المشهور، اتبـاعاً منه لبطرس الناسك، وغـوردشـال والآخريـن، باستدعـاء الذين كـانوا سيرافقـونه، وانطلق في الحملة الصليبيـة، وكـان معـه النبـلاء التـالين: بلدوين، أخوه النصفي، وبلدوين كونت أوف هاموشي Hamauci ، وهيـوج كـونت أوف سينـت بول مع ابنـه انغلران Engelran ، وغارنر كونت دي غري Gres ، ورينالد كونت أوف تول Tull ، مع أخيـه بطرس، وبلـدوين دي بـورغ، وهنري دي أوشي Auche

مع أخيه غودفري، ودودو كون دي Dodo de cons، وكونو دي مونتأكيوت Montacute ، وتبع هؤلاء حشد من الفريزلانديين، والسكسون واللورينيين، وأناس من جميع البلدان القائمة بين الرون وغارون Garonne ، وزحف هؤلاء جميعاً مع بعضهم خلال النمسا وهنغاريا، وأعطوا الملك رهائن، وتابعوا زحفهم إلى بلغريف، وهي بلدة في بلغاريا، ومن هناك إلى نيش، وسترلتز Strelitz ، ثم إنهم تابعوا زحفهم إلى داشيا الداخلية، وهي التي تعرف باسم آخر هو موشيا Moesia ، ونزلوا إلى ديرة القديس باسيل، ثم وصلوا إلى مدينة فيلبه الواسعة والفخمة، وهنا سمعوا بأن هيوج الكبير، أخو فيليب ملك فرنسا، موضوع في السجن مع الآخرين، من قبل الامبراطور ألكسيوس، فقام قائدهم غودفري اللامع، فأرسل رسلاً، وطلب اطلاق الأشخاص المتقدم ذكرهم، لأنهم حملوا الصليب.

هذا وكان هيوج المتقدم ذكره، بين أوائل من انطلق للحج، فقد عبر الألب، وسار من خلال ايطاليا إلى أبوليا، ومن هناك عبر مع حاشية صغيرة إلى ديراخيوم Dyrrachium ، وقد مكث هناك ينتظر بقية الحجاج، وهناك جرى اعتقاله من قبل حاكم تلك المنطقة، وأرسل وهو مغلول إلى الامبراطور، الذي احتفظ به في السجن وكأنه لص أو قاتل، وتلقى رسل الدوق غودفري، رفضاً أكيداً، ونتيجة لذلك اجتاح الصليبيون المنطقة كلها واستباحوها لمدة ثمانية أيام مع عساكرهم، وعندما سمع الامبراطور بهذا، أرسل إلى الدوق، وعرض عليه اطلاق سراح السجناء النبلاء، على شريطة توقف الصليبيين عن السلب والنهب، وبناء عليه أوقف الدوق رجاله عن متابعة النهب، وتابع سيره إلى القسطنطينية، حيث تسلم السجناء النبلاء، دونما أذى، وكانوا: هيوج الكبير، ودوغو دي نيل، وكلارمبولد دي فندول Clarembald de vendole ، ووليم النجار، وقد شكروه جميعاً بامتنان من أجل

حريتهم.

غدر الامبراطور ألكسيوس

كـان ألكسيوس الامبراطور الاغـريقي رجـلاً شريراً ومخادعاً، وكـان عندمـا خدم في قصر سلفـه نقفـور كان الجندي الأول في البـلاط، لكنه تآمـر بشكل منحط ضـد سيـده، وقبل خمس سنوات أوست كـانت قـد انقضت قبل هذه الحملة إلى الأرض المقدسة، كان قد خلع مولاه وصار امبراطوراً مكانه، ولقد استخدم باتصالاته مع الحجاج دوماً لغة مخادعة، لأنه نظر بريبـة نحو تعـداد الصليبيين وقوتهم، وإذا كان قـد تمنع في أي وقت من الأوقـات عن إلحاق الأذى بهم، فقـد كـان ذلك ليس نتيجـة شرف وأمانة بـل نتيجة خوف، لأنه عنـدما عسكر الدوق غـودفري مع جيشه أمـام مدينة القسطنطينية، قـدم رسل من لدن الامبراطور، يدعون الدوق إلى زيارة البلاط مع عـدد قليل من حاشيتـه، وقام الدوق— بناء على نصيحـة من مستشـاريه، بالاعتـذار عن الذهـاب، ولذلك غضب الامبراطور، ورفض تزويـد جيش الدوق بسـوق، وخشي الأمـراء من نقص مـؤنهم، فاجتـاحـوا مناطق الضـواحي برجال مسلحين، وجمعـوا أعـداد هائلة من الأغنام والقطعان، بحيـث صار هناك أكثـر من اللازم لتمـوين الجيش، وبهذا أرغـم الامبراطور ثانيـة على السماح للصليبيين بسوق.

كيف انطلق الأمير بوهيموند في حملة الصليب

وفي الوقت الذي كانت فيـه هذه الأحداث تقع في القسطنطينيـة، قام الأمير بوهيموند بن روبرت غويسكارد، وصاحب تارنتومTarentum، بعبور الأدرياتيك، قبل بداية الشتاء، ونزل في ديراخيوم، ومن هناك سار من خلال صحـارى بلغاريا، للالتحـاق بالذين كانوا قـادمين من بعده، وكـان هؤلاء يتبعـون رجـالاً نبـلاء، هم: تانكرد بن[إقـرأ:أخـو] وليم

المركيز، ورتشارد دي بروفانس مع أخيه ريموند، وروبرت دي اكس، وهيرمان دي كارفي، وروبرت دي سوردفيل sourdevaile ، وروبرت فتز— ثورستان Fitz-thurstan ، وهمفري فتز— رالف، ورتشارد ابن كونت رانولف Ranulph ، وكونت دي روسيلون مع أخيه بولي Boeleis أوف تشارترز، وأولبيرد دي كونان Albered de cognan ، وابنه همفري، وقد تبع هؤلاء جماعة من الايطاليين مع آخرين كانوا يعيشون بين بحري التيرنيان Tyrrhenian والأدرياتيكي، وقد سار هؤلاء جميعاً خلف راية بوهيموند حتى مدينة كاستوريا Cas-torea ، حيث أرغموا على سوق القطعان والأسراب والاستيلاء عليها بالقوة، لأن شعب المنطقة رفض بيعهم المؤن، وبعد مغادرتهم من هناك، عسكروا في منطقة بيلاغونيا Pelagonia ، حيث سمعوا بأن هناك بلدة في الجوار مسكونة من قبل الهراطقة، فزحفوا مسرعين إلى هناك، فاستولوا على القلعة، وألقوا النار في البيوت، وحملوا معهم كميات هائلة وثمينة من الأسلاب.

حول حج كونت طولوز

وتبع حج الذين تقدم ذكرهم تحرك ريموند كونت طولوزوأدهمر أسقف لى بوي، وكان معهما النبلاء التالين: وليم أسقف أوراشيا Au-rasia ، وكونت بينبولد Bainbald ، وغوستوس دي بدري Gaustus de Bediers ، وجيرارد دي روسلون Rouseillon ، ووليم دي مونت بيسولان Pessolan ، ووليم كونت أوف فوري Foris ، وريموند بيلز Pelez ، وغانتون دي بار، ووليم أمانن Amanen ، وقد تبعهم قوط وغاسكون، وقوم آخرون يسكنون فيما بين البيرنيز والألب، وسار هؤلاء على آثار الحجاج المتقدمين، فعبروا إيطاليا، ولومبارديا، ومنطقة فوريولي Forioli ، ونزلوا من هناك إلى استريا ودالماشيا، واحتاجوا إلى مالايقل عن أربعين يوما لعبور البلاد

الأخيرة، ووسط خطر كبير، وتمكنوا— على كل حال— أخيراً من الوصول إلى ديراخيوم، حيث تلقى الكونت رسالة مشجعة من الامبراطور، وبعدما عبر منطقة الغابات والجبال التابعة لايبروس، عسكر جيشه في منطقة بالاغونيا، التي كانت مليئة بجميع أنواع الحاجيات، وهنا هوجم الأسقف المبجل أوف بوي وأخذ أسيراً من قبل البلغار، ذلك أنه كان قد نصب خيمته بعيداً عن بقية الجيش، وطلب واحد منهم منه مالاً، وحماه من الآخرين وحدث هياج، أثار الجيش كله، فحمل السلاح وأنقذ الأسقف من بين أيديهم.

واستأنف الحجاج زحفهم، وتابعوا سيرهم من خلال سالونيك، ومقدونية، وبعد سلسلة من الأعمال المتواصلة والمتاعب وصلوا إلى روديتوس Rodetus ، وهي مدينة قائمة على شواطىء البوسفور، وذلك على بعد أربعة أميال عن القسطنطينية، حيث تقابلوا مع رسل من الأمراء الذين ذهبوا قبلهم، يرجونهم إنهاء أعمالهم مع الامبراطور، والالتحاق بهم بالسرعة الممكنة، وبناء عليه استجاب الكونت إلى المطالب التي أتت من قبل كل من الامبراطور ومن أمراء الصليبيين، فترك الجيش تحت رعاية الأساقفة والنبلاء الذين كانوا في المعسكر، وأسرع بقدر ماأمكنه مع حاشية صغيرة إلى القسطنطينية، وحصل على لقاء مع الامبراطور، الذي استقبله بكل تشريف، وعندما حُثّ على تقديم يمين ولاء إلى الامبراطور، رفض بإصرار، وانزعج الامبراطور من ذلك، فقام باجراءات تهديدية، وضايق جيشه بكل أنواع المضايقات، وأمر عساكره بالقيام بهجوم على الصليبيين، وأن يحاولوا تدميرهم، وبناء عليه قام قادته وضباطه الذين قادوا عساكره، وكانوا مطيعين لأوامر سيدهم، بمهاجمة كشافة الكونت وهم غير منتبهين، وكان ذلك أثناء الليل، ولذلك فاجأوهم بشكل كامل، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وعندما سمع الكونت بهذا اتهم الامبراطور بالتصرف غير

الأمين، وقد أسف ألكسيوس لما اقترفه، ودعا بوهيموند إلى الاجتماع به(ذلك أنه لم يكن قد عبر البوسفور بعد) وبذل جهده بوسائطه الشخصية وبوساطة أصدقائه لمصالحته مع الكونت، ورأى الوسطاء— مع أنهم كانوا غاضبين نحو ماحدث— أنه لاتوجد امكانية للانتقام، لأنه كانت هناك أهدافاً عليا أمام أنظارهم، ولذلك صالحوا الكونت مع الامبراطور، وقام الكونت بأداء يمين الولاء وفق الطريقة نفسها التي أداها الصليبيون الذين تقدموه، وغادر حضرة الامبراطور مع كثير من الهدايا، وكل مظاهر التشريف، وكان يمين الولاء الذي أداه جميع أمراء الغرب ووافقوا عليه يقضي بأن أية مدن وقلاع وممتلكات أخرى، ظهر أنها من ممتلكات الامبراطور، وتمكن الصليبيون من استردادها، يتوجب عليهم على الفور تسليمها للامبراطور ليكون مالكاً لها، لكن يمكن للصليبيين الاحتفاظ بجميع الغنائم التي سوف يجدونها هناك، وبدا هذا الشرط شرطاً غير عادل بالنسبة لبعض الأمراء، بأن تذهب جهودهم لصالح آخر ولمنفعته، ولكي يرضي الامبراطور الحجاج، أقسم أنه سوف يقدم لهم معونات عينية ونصائح، يمكنهم بها على الفور هزيمة أعداء الإيمان المسيحي، ووصلت في الوقت نفسه عساكر الكونت إلى القسطنطينية، فقامت— بناء على أوامره— بعبور المضائق، وألحقوا أنفسهم من دون أي تأخير ببقية الجيش.

كيف انطلق روبرت دوق نورماندي وأصحابه للقيام بالحج

وحوالي الوقت نفسه، حمل روبرت دوق نورماندي علامة الصليب، وانطلق بحيث كان آخر الحجاج إلى القدس، وقام أولاً بوضع نورماندي، تحت ولاء أخيه الملك وليم، مقابل عشرة آلاف مارك من الفضة، والتحق بجيشه روبرت كونت أوف فلاندرز، ويوستاس دوق بولون، وستيفن كونت أوف بلوا وكونت تشارترز، وستيفن كونت أوف ألبمارل Albemarle، وروتروك Rotroc كونت أوف بيرشي،

وروجـر دي بارنفيل Barneville، مع المقـــدمين اللامعين فيراند Fergand ، وكونان أوف بريتاني Bretagne ، يتبعهما رجال من انكلترا، ونورماندي، وفلاندرز، وبريتاني، وأنجو، وغربي فرنسا، وبلدان أخـرى قائمـة بين البحـار البريطانية والألـب، وقد انطلق هؤلاء جميعـاً حـوالي بداية الشتاء، ومـروا من خلال أبوليـا، وكالبيرا، ولكي يتجنبـوا شـدة الثلج والجليـد مكثـوا في تلك المنطقـة، حتى حلـول فصل أكثـر اعتـدالاً، وفي حـوالي ذلك الوقت نفسـه تأسست كنيســة نوروك Nor-wick، وحل الرهبان هناك محل رجال الدين.

كيف حاصر الصليبيون مدينة نيقية

في سنة ١٠٩٧م، كـان الدوق غـودفري مع رجـاله في القسطنطينيـة، والدوق بوهيمـوند في كـاسترويا Castorea ، وكـــونت طولوز في بالاغـونيا، وقـد احتفلوا بعيد ميـلاد ربنا، وتشريفـاً لذلك اليوم قـرروا إيقـاف أيـديهم عن كل أعمال النهب والايذاء، وجمعـوا في بـداية الربيع أثقالهم، وتابعـوا رحلتهم مع عربات، وخيول تحميل، وتقـدموا بزحف بطيء نحـو نيقية، ومن هناك إلى نيقـوميديا التي كـانت حاضرة بيثينيـا، حيث التقـوا بالمبجل بطرس النـاسك، وذلك على رأس عسـاكـر قليلة، كان قـد أنقذهم من هزيمتهـم المتقدم ذكرها، واستقبلـه الأمراء بلطف، وشـاركوه أسـاه حول الخسـائـر التي عانى منهـا، وأعطوه بعض الهدايا الجيـدة، وهكـذا ازداد جيش الصليبيين بالعـدد، وتابـع زحفـه بيسر، وبفضل من الرب وصل الصليبيون إلى نيقية، حيث عسكروا من حولها، وأحاطوا بها إنما تركوا مكانا فارغـاً من أجل الحجاج القادمين، وشرعوا بحصـار المدينة في شهر أيار، وفي اليـوم الخامس عشر من الشهـر، وهو يوم الصعـود، أكمـل كـونت طولوز الآن أعماله في البـلاط، وبإذن من الامبراطور، بادر بأقصى سرعة ممكنة نحـو نيقية، حيث التحق مع قواته بجيش الحصار الصليبي.

كيف قدم الدوق روبرت إلى حصار نيقية

وسمع الآن روبرت دوق نورماندي بأن مدينة نيقية محاصرة من قبل الصليبيين، الذين ذهبوا قبله، فدعا إليه رفاقه بالسلاح، ومأأن أعدّ أثقاله، حتى توجه إلى جانب البحر، وكان متشوقاً لتعويض الوقت الذي أضاعه في أبوليا، فعبر من خلال ايليريا، ومقدونية، فتراقيا من دون معيقات، ووصل إلى القسطنطينية، وهنا استقبل من قبل الحضرة الامبراطورية، وأدى مع النبلاء الآخرين الذين قدموا معه يمين الولاء الذي عُرض عليهم، ولهذا السبب لاقوا معاملة أفضل وحظوة أعظم، وشرفوا بالهدايا، والذهب، والملابس الثمينة، والأواني من أجمل المصنوعات، وأثمن المواد، مع أثواب من الحرير الخالص، مما لم يسمع بمثل قيمته، ومما لم يشاهدوا مثيله من قبل، والذي سبب دهشة كبيرة جداً للذين تسلموهم، لأنهم تفوقوا على جميع مارأوه من قبل، وحصلوا بعد هذا على إذن الامبراطور، فعبروا البوسفور، وساروا مع قواتهم إلى نيقية، حيث جرت تحيتهم بسرور من قبل الأمراء الذين تقدموا عليهم بالوصول، ونصبوا خيامهم بالأبهة الأعظم في ذلك المكان، الذي تركه الآخرون فارغاً من أجلهم، وبهذه الصورة، تشكل للمرة الأولى جيش واحد للرب من كتل متعددة من العساكر تكونت أعدادها من ستمائة ألف من الرجالة ومائة ألف فارس دارع، وقد أقام هؤلاء جميعاً طوقاً حول أسوار المدينة المتقدمة الذكر، مع تكريس تقوي للرب جميع ثمار أعمالهم الدينية.

المعركة بين الصليبيين والأتراك، التي انهزم فيها الأتراك

كانت نيقية مدينة كبيرة في بيثينيا، وكانت فيها وفرة من جميع أنواع الثروات، وكان صاحبها زعيم تركي قوي جداً اسمه[السلطان قلج أرسلان بن] سليمان، وكان معنى اسم سلطان بالفارسية« ملك»، وقد حكم جميع المنطقة المجاورة، وكان أجداده قد كسبوا هذه المنطقة من

الامبراطور الاغريقي رومانوس، الذي حكم في الطبقة الثالثة قبل ألكسيوس، وأوصلوها إلى[قلج أرسلان بن] سليمان هذا مع جميع المقاطعات من طرسوس في كيليكية حتى البوسفور، وعلى هذا كانت سلطته قد وصلت حتى ضواحي القسطنطينية، وجمع رجاله الجزية والضرائب من جميع هذه المناطق لصالح سيدهم ولاستخداماته، وكان [قلج أرسلان بن] سليمان نفسه معسكراً مع حشد كبير من الرجال المسلمين بين الجبال المجاورة، وذلك على بعد ليس أكثر من عشرة أميال، وقد تفكر حول أفضل طريقة يمكنه بها أن يخلص مدينته من الحصار المقام حولها من قبل الصليبيين، ولكي يرفع من معنويات المحاصرين بعث برسولين تمكنا من شق طريقهما إلى المدينة بوساطة قارب من قوارب البحيرة، وبذلك أوصلا أوامره، لكن واحداً منهما أسره الصليبيون، وجرى قتل الآخر، وجرى استجواب الأسير، وأرغم على الاعتراف، ومنه عرفوا بأن[قلج أرسلان بن] سليمان سوف ينزل من الجبال في اليوم التالي، وسوف يحاول رفع الحصار، وبناء عليه، ظهر السلطان في حوالي الساعة الثالثة من اليوم التالي في السهل، كما كان الأسير الرسول قد أخبرهم، وكان على رأس خمسمائة ألف رجل.

وأرسل أولاً عشرة آلاف فارس لمهاجمة كونت طولوز، الذي كان معسكراً أمام الباب الجنوبي، وقد تلقاهم الكونت بشجاعة، وصد الهجوم، وكانوا على وشك التفرق، عندما قدم السلطان مع مزيد من العساكر العديدة، فأعاد تجميع المنهزمين، وأرغمهم ثانية على الهجوم معه، والقتال مع رجالنا، ولدى رؤية الدوق غودفري، والأمير بوهيموند، وكونت فلاندرز مع أتباعهم— وكانوا مسلحين ودارعين تماما— بأن رجال الكونت قد ضغط عليهم بشدة، حملوا على الأعداء بنشاط، وبعدما قتلوا خمسة آلاف منهم، وأخذوا عدداً قليلاً من الأسرى، أرغموهم على الفرار، وهكذا حصل رجالنا على أول نصر،

وتابعوا الحصار مع عساكرهم، وقد صفوهم حول المدينة وفق النظام التالي: كان عند الباب الشرقي الدوق غودفري مع أخويه ورجالهم، وكان عند الباب الشمالي الأمير بوهيموند، وتانكرد وأمرائهما الآخرين، أما الباب الجنوبي فقد عين للكونت ريموند وأسقف لى بوي، أما الباب الغربي فقد أوكل إلى روبرت دوق نورماندي وكونت فلاندرز مع أتباعهما، وبذلك أغلقت المدينة من كل جانب، ولم تشهد الشمس من قبل جيشاً مجيداً مثل ذلك الجيش الذي وقف من حول الأسوار، وقام رجالنا بقطع رؤوس القتلى، ورموا بهم بوساطة مناجيقهم إلى المدينة حتى ينزلوا الهلع في قلوب المحاصرين، وجرى ارسال ألف من هذه الرؤوس مع عدد منتخب من الأسرى، إلى القسطنطينية هدية إلى الامبراطور.

كيف جرى لغم أحد الأبراج واسقاطه

وقرر الأمراء بعد هذا استخدام الأساليب العملية والآلات الأخرى لتهديم أسوار المدينة، وبناء عليه بدأ الحرفيون بالقيام بأعمالهم، واهتزت المدينة بالضربات المتوالية، لمدة سبعة أيام، حيث حدث إثر ذلك في اليوم الأول، أن الهجوم كان كالمعتاد، وباصرار، ووقتها حلت كارثة برجالنا، حيث فقدوا اثنين من النبلاء هما: بلدوين كالدرون Calderon ، وبلدوين أوف غنت Ghent ، فقد أصيب الأول بصخرة، وأصيب الثاني بنشابة، وحدث ذلك عندما كانا يقاتلان بشجاعة، ويهاجمان المدينة، وفي حملة أخرى تمت الموافقة عليها من قبل مجلس الأمراء، جرى قتل كل من الكونت وليم دي فوري Foreis، وغالو دي لآيلGalo de lisle ، بنشابتين، وأصيب أيضاً غي دي بوسيس Possessa بمرض حاد، مات منه، وحدث في يوم آخر، والأمراء جميعاً يستخدمون آلاتهم بنشاط عظيم ضد الأسوار، أن قام الكونت هيرمان، وهنري دي أسكى Asche ، وكانا من النبلاء

الألمان، بتركيب آلة غريبة صنعاها ببراعة كبيرة، وحوت هذه الآلة عشرين فارساً، وقد دفعا بها حتى الأسوار، ولقد كان المدافعون من الشجاعة والبراعة بمكان، حيث حطموا الآلة بحجرة كبيرة رموها من الأعلى، وقد هلك جميع الذين كانوا في داخلها، وتابع الآخرون— على كل حال— الحصار من دون توقف، وكرروا الحملات، ولم يسمحوا للمحاصرين بدقيقة راحة.

وكان العائق الأكبر الذي وقف في وجه الجيش بحيرة كبيرة كانت متصلة بالمدينة، فبوساطتها امتلك الأعداء امكانات الاتصال من دون عوائق، وأحضروا كثيراً من المؤن، مما أحبط كثيراً أعمال المحاصرين، ولكي يتخلصوا من هذه المشكلة، جلبوا سفناً إلى البحيرة، ووضعوا على ظهرها رجالاً مسلحين، وبهذه الواسطة انقطعت الامدادات عن المدينة، وكان هناك أيضاً برجاً على الجهة الجنوبية من المدينة، أعلى وأقوى من الأبراج الأخرى، وعندما وجد الصليبيون أن الوسائل التي استخدموها للاستيلاء عليه قد أخفقت، قرروا ترتيب رجالاً للغمه، وبهذه الطريقة أمكنهم بعد جهد كبير، سحب جميع الأحجار من الأساسات، وقد وضعوا مكانهم قطعاً من الخشب، وبعد ذلك ألقوا النار بين الأخشاب، فاحترقت، وتهاوى البرج مع صوت هائل ومرعب، وكأن الأرض أصيبت بزلزال، فقد أصيبت قلوب جميع الذين سمعوه بالرعب، ولاسيما سكان المدينة الذين ارتعدوا رعباً لسقوطه، وهنا لدى صدور هذه الإشارة هبت عساكر الصليبيين إلى السلاح، وشجعوا بعضهم بعضاً للاستعداد للزحف إلى داخل المدينة.

الاستيلاء على نيقية وإعطاء هذه الغنيمة إلى الامبراطور

وأصيبت زوجة السلطان بالرعب نتيجة لسقوط البرج، ولم يعد لديها أمل، ولذلك حاولت النجاة بشكل سري والفرار من المدينة عبر البحيرة، لكن رجالنا الذين كانوا على ظهر السفن يتولون مراقبة

البحيرة، استطاعوا أسرها، وقد حملوها إلى أمام الأمراء، وأسروا معها ولديها، وكانا مايزالان صغيرين، وقد وضعا الآن مع أمهما في سجن محكم، وركز الدوق اللامع غودفري اهتمامه على واحد من الأتراك، كان قد قتل عدداً كبيراً من رجالنا بسهامه، وفضلاً عن ذلك تولى شتم الأمراء من فوق الأسوار، وقد تربص فيه فرصته، وعندما توفرت رماه بسهم أصابه به في جبينه، فسقط الرجل ميتاً، ووقع من فوق السور في الخندق، ونهض الجميع الآن للقيام بالهجوم، وزحفوا للقتال ضد المدينة، وكان ذلك لدى سماعهم صوت الأبواق والنفر، وامتلأ الهواء بالضجيج، وبالنشاب، وبالحراب المتطايرة، والحجارة، وقطع الأخشاب، إنما دون أن تؤثر شيئاً على المحاصرين، ذلك أن سلاحهم وشجاعتهم ازدادت وكذلك كان نشابهم أكثف بالتساقط من ذي قبل، ومع ذلك كان عبثاً ذلك كله، ذلك أنهم أرغموا أخيراً على الاستسلام، وقد سلموا المدينة إلى تاسينوس Tacinus ، وكان ضابطاً لدى الامبراطور الاغريقي، وجاءت هذه الترتيبات متماشية مع موافقة الأمراء، الذين كانت لديهم أهدافاً عليا نحو ذلك، فذلك كان متوافقاً مع الاتفاقية التي دخلوا فيها، وتسلم الحجاج على كل حال واستردوا جميع عبيدهم، وكذلك أسراهم الذين أخذوا من قبل السكان أثناء الحصار، ومثلهم الذين كانوا من جيش بطرس الناسك، حسبما تحدثنا من قبل، ثم أرسل الأمراء رسائل إلى الامبراطور يحثونه بها على أن يبعث بعدد كاف من ضباطه لحراسة المدينة، وبسرور وفرح بعث الامبراطور بعضاً من وزرائه المعتمدين لتسلم المدينة مع جميع مقتنيات الأسرى من ذهب وفضة مع جميع الأشياء المنقولة، وأرسل مع الرسل الذين قدموا إليه هدايا كبيرة لكل واحد من الحجاج، محاولاً بوساطة كل من الرسائل وكلمات الفم الحصول على رضاهم جميعاً، وقدم لهم امتنانات وافرة على الخدمات والأعمال التي قدموها، والاضافة العظيمة التي صنعوها لممالكه. وكان قد جرى الاستيلاء على نيقية في الحادي

والعشرين من شهر حزيران، في سنة ١٠٩٧ لتجسيد ربنا.

كيف تابع الصليبيون زحفهم والنصر المفجع الذي نالوه

أما وقد انتهى الحصار، استأنف الجيش الصليبي زحفه، وجاء ذلك بناء على أوامر الأمراء، وكان ذلك في التاسع والعشرين من حزيران، وبعد عبورهم لأحد الجسور، قسموا جيشهم إلى قسمين، فقد سار على جهة اليسار: الأمير بوهيموند، وروبرت دوق أوف نورماندي، وستيفن كونت أوف بلوا، وهيوج دي سينت بول، وتانكرد، وقد وصلوا إلى واد اسمه غورغوني Gorgoni، وسار البقية على جهة اليمين، وأكملوا نهار زحف، ومع ذلك لم يكونوا على مسافة تتجاوز الميلين عن المكان الذي عسكرت فيه الكتلة الأخرى، غير أن السلطان الذي لم ينس الأذى الذي تلقاه، ظهر في اليوم التالي، في حوالي الساعة الثانية من النهار مع حشد كبير من الأتراك قيل تجاوز عدده المائتي ألف.

وجرى انذار جيشنا، ووصله خبر اقترابهم من قبل الكشافة، ولذلك وضع أثقاله وعرباته والمرضى، إلى جانب سبخة قصبية كانت قائمة بالقرب، وأعد جنودنا أنفسهم للقتال، وأرسلوا رسلاً إلى رجال الشطر الآخر، الذين بحماقة افترقوا، وشكلوا فريقاً مستقلاً، وحثوهم على القدوم بكل سرعة إلى مساعدتهم، وبدأ في الوقت نفسه الجند الصليبيون يعانون بشكل مرعب، لأن خيولهم لم تكن معتادة على الجلبة التي أحدثها الترك، فقد كانت زعقات أبواقهم وأصوات كوساتهم تمنع الخيول عن الاطاعة والتقدم، ولذلك أرغموا على التراجع، وشاهد هذا روبرت اللامع، كونت نورماندي، وكان واصلاً نحوهم، فصرخ بصوت مرتفع:« إلى أين أنت فارون ياجند؟ إن خيول الأتراك أسرع من خيولنا، ولذلك ليس مجدياً الهرب والابتعاد، ومن الأفضل الموت من أن نعيش مع العار، أقبلوا يارجالي الشجعان، وافعلوا كما أفعل، واتبعوني»، وماأن فرغ من كلامه حتى حمل على تركي فطعنه فخرق

ترسه ودرعه برمحه، ثم طعن ثانيا، وأتبعه بثالث بالطريقة نفسها، وذلك بدقيقة واحدة، واسترد الصليبيون شجاعتهم، وأعقب ذلك صراع مميت، وقد تم قتل اثنين من أمرائنا في هذه المعركة، فقد هاجم وليم— أخوتانكرد— أميراً تركيا، وقد طعن كل منهما الآخر برمحه، وأصيب غودفري، دورمونت Durmont بسهم قاتل، عندما كان يقطع رأس تركيا، وتم قتل الكونت روبرت أوف باريس بطريقة مماثلة، وجرى قتل ألفين من الحجاج، وصدت عساكرهم، لكن عندما كانوا في هذا الوضع اليائس، قامت المجموعة الأخرى، التي قادها غودفري، وكانت مشكلة من أربعين ألف رجل مسلح، بالانقضاض بشكل مفاجىء على الترك، الذين اعترتهم الدهشة لدى رؤيتهم قدوم جيش جديد، وارتقبوا وكأن السماء وقعت عليهم، ولذلك انهزموا مع قائدهم السلطان.

وطاردهم الصليبيون من دون توقف، ولذلك تغطت الأرض لمسافة أميال عن المعسكر بجثث قتلاهم، وقد عادوا إلى معسكرهم جالبين معهم الذين أخذهم الترك أسرى، في بداية القتال، وقد وجدوا هناك كميات وافرة من الذهب والفضة، والأمتعة، والخيول والقطعان، والأغنام، والمؤن من كل نوع، وسرادقات، وخيام، وخيول وأغنام، وقد أخذوا هذا جميعه إلى معسكرهم، ولقد قيل بأنه سقط في تلك المعركة من جانب الأعداء ثلاثة آلاف من رجاله الأشداء ومن أعيانهم، وجرت هذه المعركة في اليوم الأخير من حزيران، مع عدم تكافؤ كبير في القوى، لأن الترك كانوا مائة ألف وخمسين ألف رجل، في حين وصل تعداد جيش الصليبيين إلى خمسين ألفاً فقط.

كيف تابع الحجاج زحفهم من نيقية إلى أنطاكية خلال المناطق التي أخضعوها

وبعد استراحة ثلاثة أيام، كانت ضرورية لهم أنفسهم ولخيولهم،

اجتـاز الجيش جميع منطقة بيثينيـا، ثم دخل إلى بيثيديا، ونزل بعـدها إلى سهل وعر جـاف، حيث لم يستطيعوا الحصـول على أية مياه، وعسكروا هناك، وعـانى الناس كثيراً إلى حـد أن أكثـر من خمسمائـة منهم مـاتوا، وأخيراً عندمـا تمكنوا من تخليص أنفسهم من هذه المصيبـة، دخلوا إلى منطقة خصبة على مقربة من أنطاكية الدنيا، التي هي العاصمة في بيثينيا، وهنا قسموا قواتهم ثانية، ووزعوا أنفسهم على جميع المناطق للاستطلاع، ولجلب المعلومـات التي يمكنهـم الحصـول عليهـا إلى أمـرائهم، وكـان هؤلاء بعدمـا غادروا المعسكر، اجتـازوا هرقلية، وهي مـدينة في ليكونيا وذهبوا إلى قـونية التي هي عـاصمة هذه المنطقـة نفسها، وقـد وجدوها مهجورة كليـاً من السكان، لأن الأتراك عندما سمعـوا بقدوم الصليبيين تركوا مدنهم وقلاعهم، ولم يتجرأوا على الدفاع عنهم بالسلاح.

ولنعلم أن كيليكيـة تحد سـورية المجـوفـة من الشرق، في حين تحدها ايزوريا مـن الغـرب، وهنـاك في الشمال تحدها طرسـوس، وفي الجنوب بحـر قبرص، وهي لها عـاصمتين هما مـدينتي: عين زربة، وطرسـوس، التي هي مسقط رأس بولص، معلم الأمم، وأخضع هذه المدينة بلدوين أخـو الدوق غـودفري، واستـولى روبرت، دوق نورمـاندي على مـدينة اسمها (بارتزرابرت؟) Azen وأعطاها إلى سيمون الذي كان واحداً من فـرسـانه، واستـولى الأمير بوهيمـونـد مع ايرل ريمـوند على مـدينة أخـرى أعطياها إلى بيتر دي ألبيبـوس Alpibus ، ثم إنهم زحفوا إلى مـدينة كـوكسون التي استـولوا عليهـا، واستـولى بيتردي روسيلون على الروج مع عدة قلاع، واستولى بيرغندي اسمه غولف Guelf على مدينة أذنه، وبترحـاب استقبـل تانكرد عندمـا وصل إلى هناك، وتـابع تانكرد زحفه من هناك فوصل إلى المصيصه، حيث قتل الأتراك وأخضع المدينة، ومن هناك زحف إلى الاسكندرية الصغرى، التي استـولى عليها، وجعل المنطقة كلها خاضعة له.

واستأنف بلدوين— أخو غودفري— حملته، وأخضع المنطقة كلها الممتدة حتى الفرات، وانتشرت شهرته، ووصلت إلى الرها فيما وراء الفرات، ولدى سماع سكانها بوصول مثل هذا القائد اللامع من بلاد الغرب، دعوه بتواضع للقدوم ليكون بينهم، وليستولي على حكم المدينة، ومدينة الرها، وهي التي تعرف أيضاً باسم راغس Rages ، هي مدينة فخمة في الجزيرة، فإلى هذا المكان كان توبت الكبير قد أرسل ابنه توبت الأصغر، ليسترد العشرة أرطال (من الفضة) من قريبهما غابل Gabel، وبناء عليه إلى هذه المدينة ذهب بلدوين، وقد استقبل من قبل حاكمها وشعبها بتمجيد وتشريف، وذهب من هناك إلى سميساط، وعندما وجد أنه لايمكنه الاستيلاء عليها بقوة السلاح، اشتراها بمبلغ عشرة آلاف قطعة من الذهب من حاكمها، وأضافها إلى ممتلكاته، وكانت سروج المدينة التالية على طريق زحفه، فحاصرها واستولى عليها.

وبات الطريق كله مفتوحاً لكل من يرغب بالذهاب من الرها إلى أنطاكية، وفي الوقت نفسه زحف الجيش الأساسي إلى مرعش، التي أخلاها الأتراك لدى وصوله، ولم يتركوا فيها سوى الشطر المسيحي من السكان، ومن هناك أرسلوا أمامهم روبرت دوق نورماندي مع كونت فلاندرز إلى أرتاح، التي مأأن سمع سكانها بقدوم الصليبيين حتى ثاروا على الترك، الذين استبدوا بهم منذ أمد طويل، وقتلوهم جميعاً، وألقوا برؤوسهم إلى خارج أسوار المدينة، وهي تبعد خمسة عشر ميلاً عن أنطاكية، وتعرف هذه المدينة أيضاً باسم قالي— قلا(كليكية)

حول عبور أحد الجسور وحصار أنطاكية

وجرى الآن استدعاء جميع فرق الجيش المتفرقة إلى الاجتماع والاحتشاد معاً، وعندما اجتمع الجميع، صدر إعلان بمنع تفرقهم ثانية، وزحفوا في الصباح التالي نحو أنطاكية، وكان طريقهم عبر العاصي،

الذي يعرف أيضاً باسم فرفر، وسمعوا هناك أنه سوف تكون هناك صعوبات كبيرة في عبور الجسر، ولذلك أرسلوا أمامهم روبرت دوق نورماندي مع قوات خفيفة، ليتقدم وليستطلع الطريق، وليعرف هل هناك من معيقات يمكن أن تقوم حتى يتصدوا لها، وبناء عليه تابع الدوق المذكور زحفه حتى وصل إلى الجسر المذكور، وكان مبنيا من الحجارة مع برجين قام واحد منهما عند أحد مدخليه، وكان فيه مائة من الرجال الشجعان، والبارعين في استخدام القوس العقار، قد تمركزوا لمنع أي انسان من عبور النهر سواء عبر الجسر، أو عبر المخاضة، فضلاً عن هذا قدم من أنطاكية سبعمائة فارس، تمركزوا فوق الجهة المقابلة من النهر لمنع رجالنا من العبور، بقدر مالديهم من قوة، وعندما وجد الدوق روبرت أنه لن يستطيع عبور النهر، ونتيجة لمعارضة القوات التي تقدم ذكرها، نشبت معركة حامية الوطيس، وقد استمرت حتى وصول الكتلة الأساسية من الجيش، ووقتها زعقت البوقات، وهاجم الصليبيون الجسر، وطردوا المدافعين، بينما بحث الآخرون عن مخاضه، وأوقعوا الهزيمة بالأعداء، واستولوا على الشاطىء المقابل، وعندها عبر الجيش كله، ثم توقف هناك لتمضية الليل، وتابعوا في الصباح التالي سيرهم، عبر الطريق العام، وكان ذلك بين الجبال والنهر، وعسكروا أمام المدينة، على مسافة أقل من ميل عن أسوارها.

وأنطاكية مدينة واسعة الشهرة، وقد نالت اسمها من أنطوخيوس ابن الاسكندر المقدوني(كذا) وهو الذي اتخذها عاصمة لمملكته، وفيها وضع فيما بعد أمير الرسل كرسيه الأسقفي، وكان ذلك تحت رعاية ثيوفيلوس Theophilus المبجل، الذي كان الرجل الأقوى بين سكانها، ومنه عرفت بعد ذلك باسم ثيوفيليس Theophilis، وكان اسمها في العصور القديمة ربلة(كذا)، فهنا جلب صدقيا ملك يهوذا ليمثل أمام نبو خذ نصر، ثم حرم من بصره، وهي قائمة في سورية المجوفة، التي

هي منطقة في سورية، وهي مشهورة، لخصوبة أرضها، ولجداولها الجميلة، وينابيعها الرائعة، وكان صاحب المدينة رجلاً اسمه يغي— سيان، وكان تركي الأصل، ومن أسرة السلطان الكبير لفارس، الذي اسمه بركياروق Belfecho ، وكان قد طرد جميع المسيحيين، وأخضع جميع هذه البلدان إلى سلطانه.

وبناء عليه قرر أمراء الغرب، إلقاء الحصار على هذه المدينة، وفي الثامن والعشرين من تشرين الأول نشروا جيشهم وأحاطوا بأسوار المدينة، وكان هناك خمسة أبواب للمدينة، اثنان منها لايمكن اغلاقهما بسبب تدفق مياه النهر خلالها، ولذلك ترك العدو هذين البابين وركز اهتمامه على الأبواب الثلاثة الأخرى، وتولى الحملة على الباب الأعلى بوهيموند والذين تبعوا رايته منذ البداية، ثم قدم إليه روبرت دوق نورماندي، وكونت فلاندرز مع رجالها، وقد التحقا بمعسكر بوهيموند قرب باب الكلب، وتلا هؤلاء كونت طولوز، وأدهمر أسقف لى بوي وذلك مع النبلاء الآخرين الذين ساروا تحت رايتيهما، وكان بعد هذين الدوق غودفري مع أخيه يوستاس، وبلدوين مع كثير من العساكر الأخرى التي تبعته لأنه قائدها.

كيف قتل بوهيموند كثيراً من الترك لدى بحثه عن المؤن

وهكذا وضعت المدينة تحت الحصار، ووضعت الآلات في مختلف الأماكن، وضمت هذه الآلات، المجانيق، والعرادات، وآلات الرمي الأخرى، التي قذفت بحجارة كبيرة إلى المدينة، مما قذف رعباً كبيرا في قلوب السكان، كما أنهم شيدوا قلاعاً خشبية ذوات حجم كبير، ووضعوا في أعلاها رماة قسي الزنبورك، حيث تولوا رماية السهام المحترقة، والمسمومة، وقام الأتراك من جانبهم ببناء آلات مقابلة، ورموا مقابل كل حجرة حجرة، وكل سهم سهم، على الحجاج، حتى مضى بعض الوقت، وقد جرى قتل عدد كبير من على الطرفين، وبشكل

خاص من بين الذين خرجوا يمتارون، ذلك أنهم بدأوا يحتاجون إلى الطعام، وقام الأمير بوهيموند، وكونت فلاندرز، وروبرت، باجماع أصوات مجلس القادة، بالانطلاق لتأمين الميرة، وقد سمعوا بأن الأتراك يمتلكون قلعة ومدينة كبيرة مليئة بجميع أنواع الثروات، وذلك في منطقة معادية، وقد زحفوا إلى هناك مع رجالهم، ومع أنهم كانوا قلة، تمكنوا بإرادة الرب، من قتل أعداد كبيرة من الأعداء، وأخذوا كثيراً من الأسلاب لاستعمالاتهم، واكتشفوا وقتها، بوساطة طلائعهم، وجود حشد كبير من الأتراك ليس بعيداً عنهم، وأرسل بوهيموند كونت فلاندرز مع كتلة من الرجال لمواجهة هؤلاء الأتراك، ووعده بأنه سوف يلحق به مع كتلة أكبر من الجند، وقام الكونت الذي كان رجلاً شجاعاً بمهاجمة الأعداء بنشاط، وقتل مائة منهم، وفيما هو عائد إلى المعسكر، أخبره جاسوس، بوجود قوة أعظم تزحف على الجانب الآخر، وهاجم الحجاج على الفور هؤلاء بشدة أعظم، وبفضل الرب هزموهم جميعاً، وطاردوهم لمسافة ميلين محدثين فيهم مذبحة كبيرة، وهكذا عادوا إلى المعسكر منتصرين، مع خيول، وبغال، وجمال، وحمير، ومواشي، وأسلاب كثيرة كانوا قد جمعوها.

وامتلأت الحقول من حول المعسكر، والأمراء الذين كانوا يعانون كثيراً من العوز، تحمسوا الآن مع بهجة وسرور، لكن مع أن الأسلاب كانت كبيرة، إنها لم تكن كافية لتزويد ذلك الحشد الكبير لأكثر من أيام قليلة، وخلال وقت قصير بدأت المجاعة تنتشر في المعسكر، وعادت أعداد هائلة من الجنود نحو أوطانها بشكل سري، ناسية تعهداتها وإيمانها، وكان بين هؤلاء تاسينوس، الوزير البارع والأثير عند ألكسيوس، ذلك أنه خشي أن الحجاج سوف يعملون بشكل استبدادي، وقد ترك أسرته خلفه في خيامهم، ليخفي خيانته، ذلك أنه غادر ولم يعد مطلقاً.

وفي هذه الآونة حمل سوين Swain ابن ملك الدانمارك شارة الصليب، وعندما كان على طريقه للمشاركة بحصار أنطاكية مع ألف وخمسمائة من الرجال المسلحين بشكل جيد، فوجيء بكمين تركي، ليس بعيداً عن نيقية، وقد قتل مع جميع رجاله، وبسبب مقاومتهم الشجاعة، جرى الانتقام لمقتلهم بشكل نبيل، ودفع العدو ثمناً باهظاً لانتصاره.

كيف تأثر الحجاج بالمجاعة وبالوباء وعانوا منهما

باتت في هذه الآونة المجاعة بين الصليبيين كل يوم أكثر فأكثر، وتبعها الوباء، وعين أسقف لى بوي— الذي كان نائب البابا في المعسكر— صوماً لمدة ثلاثة أيام فرض على جميع الناس الأخذ به، ومراعاته، لأن الرجال الأكثر حكمة وعلماً بين الناس، قد اتفقوا على أن ذنوبهم كانت السبب في معاناتهم، كما أنهم أمروا بإبعاد جميع المشردات من الإناث من الجيش، مع عدم التسامح مع السكر، والعربدة، أو النرد، أو الأيمان الكاذبة، وجرى تحريم جميع أعمال الغش والخديعة والتصرفات الشائنة، وجرى تقديم صلوات خاشعة، من أجل أن تتطلع الرحمة الربانية إليهم وتنزل عليهم، وهكذا بفضل نعم الرب الوافرة، عاد الناس إلى الطريق الأقوم للحياة، وخمد غضب الرب قليلاً، لأن الحجاج كانوا قد ارتعبوا إلى أبعد الحدود عندما علموا بوجود جواسيس في المعسكر، من كل الشعوب في الشرق، وهم من غير المؤمنين، وبات كل رجل في المعسكرقلقاً ليعرف كيف يمكنه الدفاع عن نفسه ضد أعداد هائلة من المقاتلين، من الممكن أن تزحف ضدهم.

هذا وكان من السهل بالنسبة للجواسيس البقاء غير مكشوفين في المعسكر، داعين أنفسهم بأنهم تجار من بلاد الاغريق، أو من سورية، أو من أرمينية، جلبوا مؤناً لبيعها للجيش، ونظراً لأن هؤلاء الجواسيس كانوا شهوداً على المجاعة والوباء اللذان انتشرا في المعسكر، خاف الحجاج بالفعل من قيام هؤلاء الجواسيس بالانتشار بين الشعوب، الأمر

الذي سوف يغريها للقدوم مع القوات لتدميرهم جميعاً، واحتار الأمراء ولم يعرفوا العلاج الذي ينبغي استخدامه ضد هذا الشر، لكن بوهيموند عرف كيف يتصرف، ذلك أنه كان رجلاً ذكياً، فعند حلول المساء من الليلة التالية، عندما كان رفاقه جميعاً منشغلون في جميع أرجاء المعسكر، بإعداد الطعام لعشائهم، أمر باحضار عدد من الأتراك، كانوا لديه في السجن، وأمر بقتلهم، ثم بشي أجسادهم فوق نار كبيرة، لإعدادهم من أجل المائدة، فضلاً عن هذا، أمر خدمه أنهم إذا ماسئلوا عما كان يحدث أن يجيبوا أن أوامر عامة قد صدرت، تقضي أنه منذ الآن فصاعداً، بتقديم جميع الأتراك الذين سوف يجلبهم الكشافة أسرى، ليكونوا طعاماً لكل من الأمراء والناس عامة.

وسمع الجيش كله أخبار هذا العمل المدهش الذي قام به الأمير بوهيموند، فركضوا جميعا ليتعرفوا على الأخبار، واعتقد الجواسيس الأتراك الذين كانوا في المعسكر، بأن هذا العمل كان عملاً جاداً، لارجعة فيه، ولذلك خافوا من أن يحدث الشيء نفسه لهم أنفسهم، ولذلك غادروا المعسكر، وعادوا إلى بلدانهم، حيث أخبروا سادتهم بأن رجال جيشنا كانوا شرسين جداً، مثلهم مثل وحوش الغابة، ولايقنعهم اخضاع المدن والقلاع، والاستيلاء على أسلاب أعدائهم، وهم لايكتفون بتعذيب أسراهم وقتلهم، بل يقومون بملىء أجوافهم من جثثهم، وهم يتغذون على دماء ضحاياهم، وانتشر هذا الخبر ووصل إلى أقصى مناطق الشرق، وأرعب البلدان النائية جداً، واضطربت أنطاكية لسماعها أخبار هذه الفعلة، وتجلت رحمة الرب نحو شعبه بفعل حماسة الأمير بوهيموند، وبهذه الوسيلة توقف إلى أبعد الحدود الخوف من الجواسيس.

شفاء الدوق غودفري من مرضه وسبب مرضه

وكان هناك سبب آخر لسرور الجيش هو شفاء الدوق غودفري،

الذي كان في تلك الآونة قد استرد صحته من مرض شديد، لأنهم عندما كانوا في أنطاكية الصغرى أصيب بجراحة كانت قاتلة تقريباً، وقد أصيب بها من دب، فقد ذهب الدوق إلى الغابة بقصد الاستجمام، فوجد حاجا مسكينا يحمل خشبا جافاً، مهاجماً من قبل دب، وكان غير قادر على الدفاع عن نفسه، لذلك ركض هارباً وهو يدعو بصوت مرتفع للنجدة، وشاهده الدوق، وهو يركض، ويصرخ بصوت مرتفع، والدب قريب منه وجاهز لإلتهامه، فاندفع نحو الحيوان، وهو شاهر لسيفه، لانقاذ الرجل المسكين، وعندما شاهده الدب، وهو يزحف نحوه، وسيفه مجرد مشهور، ترك الحاج المسكين، وانقض على عدوه الأعظم، وخاف حصانه خوفاً شديداً، فترجل راكبه، وتابع القتال على قدميه، وبصوت مرتفع وفكين مفتوحين استخف الدب بالدوق وبسيفه، وسعى للاشتباك معه، وعندما حاول الدوق طعنه بسيفه تجنب الدب رأس السيف، وأمسك الدوق بمخالبه الأمامية، وحاول رميه أرضاً حتى يمزقه إرباً إرباً، غير أن الدوق الذي كان قوياً، وعسكرياً رياضياً، أمسك الدب بيده اليسرى، وغرس السيف بجسده حتى غمده، فألقاه ميتاً على الأرض، ونظراً لأنه أصيب بجراحة بالغة، ولأنه تغطى بالدم، وللنزيف الكبير الذي عانى منه، خارت قواه، حتى أنه لم يعد قادراً على العودة إلى خيمته، وما أن تولى الحاج المسكين— الذي أنقذ من الموت بتدخل الدوق— نشر الخبر في المعسكر حتى هبت العساكر نحوه، ووضعته على محفة، وحملته وسط أسف عام من قبل جميع الجنود في المعسكر، حيث حظي بعناية الجراحين حتى شفي من جراحته، وبما أن هذه الحادثة وقعت في الآونة التي أشرنا إليها من قبل، لذلك توفر سرور عارم بين صفوف الجيش كله.

كيف جرت سيامة سامبسون أسقفاً لوركستر

وقام في السنة نفسها، أنسلم رئيس أساقفة كانتربري بسيامة

سامبسون أسقفاً لوركستر Worcester، وكان ذلك في لندن، في كنيسة القديس بولص، يوم الأحد ٢٥ حزيران، وكذلك عمل رتشارد دي اسي Essaie راعي دير لكنيسة سانت ألبان الشهيد في انكلترا، وقد أدارها بأمانة لمدة اثنتين وعشرين سنة، أصلح خلالها الأوضاع الدينية داخل أسوار الدير، وأثراه في الخارج بالقلايات، مع ممتلكات الأراضي، والمقتنيات من كل نوع.

حول مقتل ألفي تركي

العام ١٠٩٨م: الحجاج منشغلون في حصار أنطاكية، وقد احتفلوا بعيد ميلاد الرب بشكل فخم جداً، مع قداسات دينية، وتقديم للصدقات، وفي الوقت نفسه كان أهل أنطاكية قلقين على مدينتهم، في وضعها الحرج آنذاك، ولذلك دعوا أمراء المسلمين، من القريب والبعيد، إلى عونهم، وبناء على طلباتهم الملحة بعث أهالي مدن: دمشق، والقدس، وقيسارية، وحلب، وحماه، وحمص، وبعلبك، ثمانية وعشرين ألفاً من المحاربين، وقد تجمعوا عند حارم، التي تبعد حوالى أربعة عشر ميلاً عن أنطاكية، وكانوا عازمين على الانقضاض بشكل مفاجيء تماما على الحجاج، في الوقت الذي يكون فيه هؤلاء منصرفين نحو الهجوم على المدينة، غير أن قادتنا وقد عرفوا بهذه النية المبيتة، تركوا رجالتهم يتابعون الحصار، وجمعوا جميع الفرسان عند أول الغسق، وغادروا المعسكر بصمت، وتوقفوا خلال الليل على بعد ميل واحدعن المعسكر المعادي، بين بحيرة وبين العاصي، وقد هبوا إلى السلاح في الصباح الباكر، ووزعوا قواتهم إلى ست فرق، لكل منها جرى تعيين قائد، وعرف الأتراك الذين لم يكونوا بعيدين بأن رجالنا كانوا على مقربة منهم، وقد أرسلوا سريتين من الجند نحو الأمام، في حين لحقوا هم بهم على مهل، وكان تعداد الصليبيين سبعمائة رجل فقط، إنما من القوة التي حصلوا عليها من عليين، ظهروا بالنسبة لأنفسهم آلافاً كثيرة.

وأثناء زحف القـوات نحـو الأمـام من على الجانبين، حمل الصف الأول من الأتراك بشـدة متناهيـة على الصليبيين، واثقين أنهم بعـد اطلاقهم لنشابهم عليهـم سوف يكون بإمكانهم التراجع إلى عساكرهم، لكن رجـالنا تحملوا، ثم حملـوا عليهم بالسيـوف مجردة، ورمـاح مثبتـة، ودفعوهم حتى جعلوهم يتكدسون بين البحيرة من جهة وبين النهر من الجهـة الأخرى، ولذلك أعيق الأتـراك عن التحرك بحـرية هناك حسبما هي طريقتهم المعتادة، وعندمـا وجدوا أنفسهم غير قـادرين على التعامل مع الصليبيين في القتال، أخلـدوا إلى الفرار، لأنه كان الوسيلـة الوحيدة للنجـاة، وطاردهم الصليبيـون بشدة حتى معسكرهم، الـذي كان يبعـد عشرة أميال عن ميـدان القتال، ولدى رؤية سكان حارم للعساكـر وقد هزمـوا، وأن أكثـرهم صـاروا طعمـة للسيف، قـامـوا بإحـراق بلدتهم، وهربوا منهـا أيضـاً، وقـام الأرمن مع المسيحيين الآخـرين السـاكنين في تلك المناطق بالاستيـلاء على البلدة، وسلمـوها للصليبيين، وجـرى في ذلك اليوم مقتل ألفي رجل من الأعداء، وقدم رجالنا حمداً وافراً للرب من أجل نصرهم، ثم عـادوا إلى المعسكر، حـاملين معهم خمسمائـة رأس من القتلى، مع ألف من الخيول الرائعـة، وكميات هائلة من الغنائم، وفي الوقت نفسـه خرج سكان المدينة، وأغـاروا بشجاعة على رجـالنا طوال النهـار كله، لكنهم تـراجعـوا إلى داخـل المدينة لدى اقتراب الأمـراء، وعندما وصلت الفرقة المنتصرة إلى المعسكر، رمت بمائتي رأس تركي إلى المدينة، لإعـلام السكان بانتصـارهم، وثبتـوا البقيـة على عصي أمـام الأسوار، حتى يزيدوا بمشاهدتهم من آلام المحاصرين.

كيف جرى تدمير ثلاثمائة من الحجاج من قبل الترك

وبعدمـا عاد الأمراء إلى الحصار، قـاموا بهجوم عـام على المدينة، وقد جرت مـواجهتهم بكل شجاعة من قبل المحـاصرين، الذين قتلوا حامل علم أسقف لى بوي مع عدد كبير آخر، وأخيراً بعدما مضى على الحصار

خمسة أشهر، وصلت بعض المراكب الجنوية جالبة حجاجاً وميرة، وبعث البحارة بعدة رسل يطلبون من الأمراء قوة ترافقهم إلى المعسكر، ومنحت هذه الأخبار الرضا إلى الحجاج الذين كانوا منذ أمد يعانون من الحاجة إلى الطعام، ونزل عدد كبير منهم إلى ساحل البحر، حيث أنهوا أعمالهم واستعدوا للعودة ثانية إلى المعسكر.

وكان الأمير بوهيموند، وكونت طولوز، وايفرارد دي بوساكو Everard de Busaco وغارنر Garner كونت دي غري Gres، هم القادة الذي كلفوا بمرافقة الحجاج القادمين الجدد مع الآخرين الذين نزلوا لمقابلتهم، وعندما سمع أهل أنطاكية أخبار هذه الحملة أرسلوا أربعة آلاف من العساكر الخفيفة لإعتراضهم وتدميرهم، وبناء عليه عندما كان الحجاج الأدنى مرتبة— الذين لم يكونوا مسلحين— على طريقهم إلى المعسكر، مع المؤن على ظهور الخيول، خرج الأتراك من الكمين، وهاجموهم بفعالية، ودافع عنهم الأمراء لوقت طويل، لكن عندما رأوا أخيراً استحالة متابعة القتال ضد مثل ذلك الحشد الكبير من الأتراك، تراجعوا إلى المعسكر مع أكبر عدد أمكنه أن يلحق بهم، لكن العدد الأساسي من الحجاج، وكانوا حوالي ثلاثمئة من الجنسين، ومن جميع الأعمار، قد قتلوا في ذلك الاشتباك.

وفي الوقت نفسه وصلت أخبار إلى المعسكر بأن الحجاج الذين نزلوا لتوهم إلى اليابسة قد فوجئوا من قبل كمين نصبه الأتراك ، وأنهم جميعاً كانوا طعمة للسيف، وفي أثناء انتشار هذه الأخبار، دخل بوهيموند، يتبعه كونت طولوز إلى المعسكر، وشرحوا إلى الأمراء أخبار الحادث المشؤوم الذي حدث، وشاهد يغي سيان، حاكم المدينة، بأن رجاله قد انتصروا ولذلك أمر بفتح أبواب المدينة، حتى تتمكن القوات من الدخول بحرية لدى عودتها، لكن قادتنا كانوا تواقين للانتقام لدماء رجالهم، فحملوا السلاح، وبادروا مسرعين لمواجهة الأعداء، وانقضوا

بغضب وعنف على الأتراك، الذين تفرقوا وتبددوا خوفاً، وتصارع الفريقان في سبيل السيطرة على جسر المدينة، وتمكن الدوق غودفري دوق اللورين من مركزة رجاله على الجسر، وقام هؤلاء إما بقتل الأتراك، أو بصدهم وطردهم نحو الأمراء الذين كانوا يتولون مطاردتهم، وبذلك صاروا غير قادرين على مقاومة أي من الفريقين، ولم يستطيعوا بأية وسيلة الفرار، لهذا جرى تمزيقهم إلى إرب إرب، ورأى يغي سيان فرار عساكره، ولهذا فتح الأبواب لإدخال الذين بقيوا منهم أحياء على الأقل، ولذلك توفر هناك حشد كثيف فوق الجسر، ولذلك سقط عدد كبير جداً في النهر، وتمكن الدوق غودفري بقواه الذاتية، وبضربة واحدة، من قطع رؤوس عدة عساكر أتراك ورأى واحداً منهم وهو يحمل بشدة على رجالنا، فقطعه إلى قسمين، وهو لابس لدروعه، وهكذا سقط القسم الأعلى على الأرض، بينما بقي القسم الأسفل على ظهر الحصان الذي حمله إلى داخل المدينة، ذلك أن هذا الحصان اندفع يصهل ويشخر بين الأتراك، وكأنه مدفوع من قبل الشيطان، وقد أرعب الجميع بمنظر الجثة الفظيع فوق ظهره، وسدد روبرت دوق نورماندي ضربه مماثلة لتركي آخر، كان يتحارب معه، وكانت الضربة قوية إلى حد أنها نفذت من خلال الخوذة، والترس، والرأس، والأسنان والرقبة نزولاً حتى الصدر، وكان مثل شاة قطعت إلى قسمين من قبل الجذار، وعندما سقط إلى الأرض، صرخ الدوق بصوت مرتفع قائلاً:« إنني أوصي بروحك الدموية إلى جميع العاملين في جهنم»، فقد جرى في ذلك اليوم مقتل ألفين من الأتراك، ولولا قدوم الليل، لكانت أعمال أنطاكية قد وصلت إلى النهاية، وعلم رجالنا بشكل مؤكد من الأسرى، أن اثني عشر رجلاً من بين أعيان الأتراك قد سقطوا في هذه المناسبة، وقام سكان المدينة بدفن أجساد الذين قتلوا منهم أثناء الليل، لكن رجالنا نبشوا قبورهم وأخرجوهم ثانية، وجردوا هؤلاء الكلاب المدفونين من جميع الذهب والفضة والثياب الثمينة التي كانوا يرتدونها، وأعطوا

الجميع للاستخدام من قبل حجاجهم الذين كانوا فقراء.

كيف استولى الحجاج على ألفين من الخيول

بعد هذا النصر الذي أرسلته السماء، بنى الحجاج بعض المحطات الجديدة والآلات من أجل ازعاج المدينة، وسمعوا بأن سكان المدينة لديهم نقص بالأعلاف، لذلك أرسلوا خيولهم للرعي في مكان يبعد حوالي الأربعة أميال عن المدينة، فزحفوا مسرعين إلى هناك، وقتلوا الذين كانوا هناك مسؤولين، واقتادوا إلى المعسكر ألفين من الخيول الأصيلة، إلى جانب البغال من الجنسين، وحوالي الوقت نفسه، سمع بلدوين، أخو الدوق غودفري— الذي كان، كما روينا، قد تسلم حكم الرها— بأن الحجاج في عوز للضروريات فأرسل إليهم هدايا كثيرة، وذهباً، وفضة، وملابس حريرية، وخيولاً ثمينة، بها تحسنت أوضاع الأمراء كثيراً، وأرسل إلى أخيه غودفري أيضاً جميع موارد أراضيه قرب الفرات من حبوب وخمرة وشعير، وزيت، وذلك إلى جانب خمسين ألف قطعة من الذهب.

وفي هذا الوقت أيضاً جلب الجواسيس أخباراً إلى الأمراء، بأن سلطان فارس قام بناء على الطلبات الملحة من أهل أنطاكية، ثم بفضل تدخل رعيته، فأرسل إلى سورية جيشاً عظيماً، وأن هذا الجيش بات وشيك الوصول، وأرعبت هذه الأخبار الأمراء كثيراً إلى حد أن ستيفن كونت تشارترز، تظاهر بالمرض، فحصل على إذن من رفاقه بالمغادرة، وغادر مع أربعة آلاف رجل ولم يعد ثانية، واجتمع الأمراء الذين كانوا خائفين تمام الخوف من هذه الكارثة المقبلة، وتشاوروا حول العلاج المتوجب الأخذ به، قبل أن يقوم الآخرون باحتذاء حذو هذا المثل القاتل، ولذلك تقرر بالاجماع أن كل واحد سوف ينسحب من دون موافقة الأمراء ويترك المعسكر من دون إذنهم، سوف يعد مجرماً بتدنيس المقدسات، أو بالقتل، وهكذا حدث أنهم جميعاً، تعهدوا عن طواعية،

وأقسمـــوا وكأنهم في الديـر، وربطوا أنفسهم على أن يكـونوا مطيعين للأمراء.

حول فيروز الذي خان أنطاكية

من المعروف أن الرحمة الربانيـة غالبـاً ماتقدم العـون إلى عبيد الرب، عندما تخفق جميع الوسائل الأخـرى، ولاتحيجهم للتعرض للمحنة فوق طاقتهم بالتحمل، فقـد كـان هناك في أنطاكيـة رجـلاً من أصل نبيل، وكـان متميزاً في ميـدان المسيحيـة، وكان اسمـه فيروز Emifer، وكان رجلاً صـاحب سلطان كبير ونفوذ لـدى يغي سيان، وكـان مسؤولاً في قصره عن ديوان الوثـائق(كـاتب بـالعـدل)، وكـان مشهـوراً لنشـاطه وحكمتـه، وكان هـذا الرجل قد سمـع بأن بوهيمونـد كان أميراً لامعـاً ومجيداً، ولذلك قام فور إلقاء الحصار على المدينة بإرسال رسل موثوقين لديه إليه لضمان صداقته وكان في كل يوم يفشي إليه بصورة الأوضاع في المدينة، وكان يبين له بشكل سري كيف عليـه أن يعمل، وقام بوهيموند من جـانبـه بإخفاء سر صـديقـه، بحيث لم يكن بإمكان الرسل من كـلا الجانبين تحصيل أية معرفة عن مراسلاتهما.

واستمـرت هذه الصـداقـة بينهما لمدة سبعـة أشهر، وكـان مـوضـوع مـداولاتهما يتعلق بكيفيـة الطريقـة التـي يمكن بها إعـادة المدينة إلى المسيحية، وغالباً ماطرح بوهيموند هذا السؤال على فيروز، الذي أرسل إليه ابنه يحمل هذه الرسـالة:« إنه إذا أمكن طرد الكلاب القذرين الذين نحن الآن تحت نيرهم من المدينة، واسترداد المدينة لحريتها القديمة، وإثر ذلك إعـادة اسكانها ثانيـة مـن قبل شعب الرب، إنني على يقين سـوف أنال جـائزة السعـادة الأبدية مع أرواح المبـاركين، وإذا لم أستطع الوفـاء بوعـدي، لاشك بأن بيتـي واسم أسرتي سـوف يمحى من الوجـود، وبذلك لن يسمع به ثانية، وإذا— على كل حـال— تمكنت من الحصول على مـوافقـة حلفـائك، بأن المدينة حينما ستسلم إليك من قبلي، سـوف

تصبح ملكاً لك، إنني من أجلك سوف أكرس نفسي لهذه المغامرة، وإنني سوف أسلم إليك هذا البرج العظيم الحصانة وأضعه بين يديك، فهو ماأن تتملكه، سوف يستطيع الأمراء لديك استحواذ ممر مفتوح إلى أي جزء من أجزاء المدينة، وكن على يقين أن هذا إذا لم يفعل في يوم الغد، فإنه لن يفعل مطلقاً، لأن هناك مائتي ألف من الفرسان قادمين من جميع ممالك الشرق لمساعدة هذه المدينة، وهم الآن معسكرون على شواطىء الفرات».

وعندما سمع بوهيموند هذه الكلمات، رجع إلى المعسكر، ودعا إليه جانبا كبار الأمراء وخاطبهم قائلاً مايلي:« إنني أرى ياأصدقائي الأعزاء واخواني أنكم قلقون تجاه اقتراب كربوغا مع جيشه الهائل، الذي بعدما أمضى أسابيع في حصار الرها، هو الآن قادم لمساعدة أهالي أنطاكية، وبناء عليه، إنه يبدو لي أن علينا السعي للاستيلاء على أنطاكية، قبل وصول هذا الحشد، وإذا ماسألتم كيف يمكن فعل ذلك، أجيبكم بأن هناك وسيلة يمكن بها تحقيق رغباتنا، إن لدي صديقاً في المدينة، إليه موكل حفظ برج قوي، وقد تعهد بتسليمي إياه، متى سألته ذلك، وبناء عليه إذا كنتم ترون أن من الحكمة تسليم المدينة إليّ، لتكون ملكاً لي، وذلك إذا ماأمكن الاستيلاء عليها، إنني على استعداد لتنفيذ حصتي من الصفقة، لكن إذا كان لدى أي منكم اقتراح مخالف، أنا جاهز لإعطائه محلي، والتخلي عن دعواي».

حول الاستيلاء على أنطاكية وحول سلبها ونهبها

وعبّر المقدمون عن رضاهم الكامل وقناعتهم بهذه الكلمات، باستثناء كونت طولوز، وقدموا تعهدات مهيبة، بأنهم لن يخبروا بهذا السر أي انسان، وحثوا في الوقت نفسه بوهيموند على صرف عنايته القصوى نحو ضمان نجاح هذا المشروع، وارفض الاجتماع، وأخبر بوهيموند صديقه بأنه حصل على الشروط المطلوبة، وطلب منه ترجمة أقواله

وأفكاره إلى أفعال في الليلة المقبلة، وقام فيروز من جانب آخر، بتنبيه بوهيموند إلى وجوب مغادرة جميع الأمراء المعسكر في حوالي الساعة التاسعة، وكأنهم ذاهبون لمواجهة الأعداء، وأن يعودوا بشكل سري مع أول ساعات الليل، حتى يكونوا في منتصف الليل جاهزين للالتحاق بالمغامرة.

وجرى تنفيذ هذا كله، واقترب حلول منتصف الليل، وكانت المدينة وقتها كلها تغط بالنوم، عندها أرسل بوهيموند واحداً من خدمه إلى صديقه ليسأله عما إذا كان يمكن لحاشية سيده اظهار أنفسهم؟ ووصل الخادم وسلم الرسالة، وعليها ردّ فيروز قائلاً:« اجلس هنا ولاتقل شيئاً حتى أعود»، وقد انتظر لبعض الوقت حتى قام رئيس الحرس الذي كان معتاداً على الطواف على الأسوار ثلاث مرات أو أربع كل ليلة، مع المصابيح ليرى إذا كان أحداً من الحراس نائماً، أثناء مروره به، وبعد ذلك بحث عن فرصته فوجدها، فعاد إلى الرسول وقال له:« ارجع سريعاً وأخبر سيدك ليقدم إلى هنا مع عصبة من الرجال المنتخبين بقدر ما أوتي من سرعة»، وعاد الرسول، فوجد سيده جاهزا مع الأمراء، وكان الجميع قد استعدوا، وحضروا بأنفسهم كتلة واحدة عند أسفل البرج، وكانوا بمثابة رجل واحد، ودخل فيروز إلى البرج، فوجد أخاه هناك نائماً، ولأنه كان يعرف أن عقله سوف يكون مضاداً لمثل هذه المغامرة، وخوفاً منه أن يقف عائقاً ضد نجاحها، طعنه حتى قلبه، وكان هذا عملاً صحيحاً، وفي الوقت نفسه دموياً، ثم إنه ذهب ونظر نحو الأسفل على الأمراء، ورمى إليهم بحبل، به سحب إلى الأعلى سلماً من أجلهم من أجل الصعود عليه، وبعدما نصب السلم، مامن واحد منهم صعد عليه، خوفاً من خيانة، وذلك دون الاهتمام بتحريض بوهيموند، وعندما رأى بوهيموند ترددهم، تسلق على السلم بنفسه مغامراً بها، وأخذه فيروز بيده وسحبه إلى البرج وقال له:« عاشت يمناك هذه»، ثم

اقتاده نحو الداخل، حيث كانت جثة أخيه ممدة، وأوضح لصديقه لماذا تولى قتله، واحتضن بوهيموند صديقه، وأطرى على ثبات موقفه ورأيه، ورجع إلى السلم، وحث رجاله على الصعود، لكن مامن واحد منهم رغب بالصعود، حتى نزل بوهيموند ثانية، وأعطاهم برهاناً واضحاً على أن كل شيء كان سليماً.

وصعد الرجال جميعاً بسرعة كبيرة، وامتلأ البرج بهم، ولم يقتصر ذلك على ذلك البرج بل امتد إلى أبراج مجاورة، حيث جرى احتلالها بسرعة، بعد قتل الحراس الذين كانوا بداخلها، وأخيراً فتحوا باباً سرياً، منه دخل جميع الأمراء الذين كانوا في الخارج ، وبهذه الوسيلة ازداد عددهم، فأغاروا نحو باب الجسر، حيث فتحوه بالقوة، وذلك بعدما قتلوا المدافعين عنه، وأدركوا الآن أن فجر اليوم قد دنا، ولذلك شرعوا يصدرون أصواتاً بالأبواق، وبالنفر لايقاظ الذين كانوا مايزالون في المخيم، ورفع علم بوهيموند وأخذ يخفق من فوق واحد من أعلى الأبراج معلناً بأن المدينة قد سقطت، واستيقظ السكان من نومهم، وتساءلوا عن هذه الضجة غير الاعتيادية وعن معانيها، وعندما— بعد أمد طويل— شاهدوا بأن جميع الشوارع تسيل بها الدماء، مع وجود رجال مسلحين في كل جهة، قاموا بمغادرة بيوتهم والتخلي عنها، وحاولوا الفرار مع زوجاتهم وأطفالهم، لكنهم تواجهوا في كل مكان مع تعاسة الموت.

وتطاير المسيحيون الذين سكنوا في أجزاء مختلفة من المدينة، إلى السلاح، والتحقوا بمحرريهم، وألحقوا خسائر كبيرة بالأعداء، ولقد فتحت جميع البيوت، واستبيحت بما كان فيها من سلع، وذهب، وفضة، وملابس ثمينة، وجواهر، وآنية لاتقدر بقيمة، وسجاد، وثياب من الحرير الخالص، وهذه كلها جرى اقتسامها بالتساوي بين الناس الذين كانوا قبل قليل يعانون من العوز ومن الجوع، فلقد بات هؤلاء لديهم

الآن الوفـرة من كل شيء، ولقـد قيـل بأن أكثـر من عشرة آلاف من الأتراك قد جـرى قتلهم في المدينة، وكانت جثثهم المرميـة بالشوراع من دون دفن تشكل منظراً تعيسـاً لمن ينظر إليها، وتم العثـور في المدينة على نحو خمسمائة حصان عربي، وكـانوا جميعاً نحيفين من الحاجة إلى الطعام، لأن قليـلاً مما هو مناسب للأكل من قبل الخيول أو الناس، كـان ماعثـر عليه بالمدينة لدى الاستيلاء عليها.

وفاة يغي سيان أمير أنطاكية وصاحبها

وعندما شـاهد يغي سيان، صـاحب أنطاكية، بأن المدينـة قد احتلت، خـرج منها وحيـداً من خـلال باب خلفي، وكـان مضطرباً بعقله كثيراً، وقـد حاول النجـاة، لكنه واجـه أحد الأرمن الذي عـرفـه، فرمـاه على الأرض، وقطع رأسـه بالسيف، وحمله وقـدّمه إلى الأمـراء أمـام الجيش كله، وكان بعض أعيان المدينة غير عارفين ماذا يفعلون، لذلك سعوا إلى الفـرار نحو الحصـن العالي، لكن قـابلهم بعض رجـالنا الذين كـانوا في أمـاكن أعلى منهم، وقـد اعترضـوا سبيلهم، وتضـايقـوا من منحـدرات الرابيـة، وضغط عليهـم من الأعلى من قبل رجـالنا، ومـع أنهم بذلوا جهـودهـم للدفـاع عن أنفسهم لقـد وقعـوا على طول الطـريق هم وخيولهم، وماتوا وكان تعدادهم حوالي الثلاثمائة، وحاول آخرون الفرار إلى المناطق الجبلية، لكن رجـالنا طاردوهم، وأسروا بعضاً منهم، وتمكن الآخـرون بفضل جـودة خيولهم، مـن النجاة إلى الجبـال، وهكذا جـرى الاستيـلاء على أنطاكيـة في السنة الـرابعـة عشرة بعـد استيـلاء المسلمين عليها، وكان هذا في سنة ١٠٩٨م، في اليوم الثالث من شهر حزيران.

حول شمس الدولة وتسليمه القلعة إلى كربوغا

وعندمـا خمدت الفـوضى التي تـرافقت مع الاستيـلاء على أنطاكيـة، وصار كل شيء هادئـاً، اجتمع الأمراء مع بعضهم، وقـرروا الصعود إلى

الرابيـة التي أشرفت على المدينة، والاستيلاء على الحصن واقتـلاع الذين فيـه منه، لكـن عندمـا وصلوا إلى الموضع، أدركـوا أنهم لن يستطيعـوا الاستيـلاء عليـه إلا بالتجـويع، ولذلك صرفـوا اهتمامهم نحـو هذه المسائل، وكان شحنة القلعة وحـاكمها هو شمس الدولة ابن يغي سيان المتقـدم ذكـره، وكـان معـه عـدد كبير من جند الترك، وعندمـا سمع بكربوغـا مع الجيش الفارسي بأنـه دخل إلى منطقة أنطاكيـة، وضع أمله فيه، وبـادر مسرعاً لمقابلتـه، وأخبره عن وفاة أبيـه، وعن مأساة أنطـاكية وعـزلتهـا، وأجـابه كـربوغـا:« إذا مـاأردتني أن أبذل كل جهـودي في سبيلك، سلمني حصنك، فعنـدمـا أكـون آمنا في ذلك الموقع، سـوف أهاجم أولئك الـرعـاع بجميع قـواتي»، ورضي شمس الدولة وسلمـه حصنه، وأودع الدفاع عنـه بين يديه، ومأأن تسلم كربـوغا الحصن حتى وعد مخلصاً بمساعدة شمس الدولة.

ولدى سماع الأمراء بدخـول كربوغا إلى أراضي أنطاكية، سعـوا نحو تقوية المدينة، وشحنها بالحاجات الضرورية، وهنا فجأة ظهر ثلاثمائة من فرسان جيش كربوغا، واقتربوا مـن المدينة بتهور، وأغروا رجالنا للتقدم نحوهـم والقتال معهم، وهنا قـام روجردي برانفيل وكـان فارسـاً جيداً مـرتبطاً بروبرت دوق نورماندي، فأخـذ معه خمسـة عشر مرافقـاً وحمل بشجـاعـة عليهم للتصـدي لهم، لكن الأعـداء هـربوا بشكل مخادع، وطاردهم روجر حتى وصلوا إلى مـوقع كمين لهم، وقام الكمين بشكل مفـاجىء وحمل على رجـالنا وأرغمهم على الفـرار، ولم تستطـع قـوات روجـر القتـال مع العـدو، بسبب قلتها، ولتفـوق الأعـداء على رجـالنا بسرعة خيولهم، وقد قتل روجر، ونجا رجاله إلى داخل الأسوار، وقطع الأعداء رأسه، وعادوا دون أن يصابوا بأذى إلى معسكرهم.

الحصار الثاني لأنطاكية من قبل كربوغا

وفي اليوم الثـالث بعد الاستيلاء على انطاكية، نصب كـربوغا، الأمير

الفارسي معسكره أمام المدينة، مع جيش عملاق، وطوق بشكل محكم جميع الجانب الجنوبي، وذلك امتداداً من الباب الشرقي إلى الباب الغربي، وكان إلى جانب الباب الشرقي قلعة تولى حراستها بوهيموند،فطوقوا هذه القلعة، وقاموا بحملات متوالية عليها، واستثير بوهيموند بجرأتهم، فحمل عليهم، لكنه قوبل بقوة تركية متفوقة، أرغمته على الانسحاب متراجعاً إلى المدينة، ولدى احتشاد عامة الجند عند الباب، قتل منهم حوالي المائتين، من جراء الحملة العنيفة للأعداء، وفي مرة ثانية، هاجم الأتراك أيضاً، القلعة التي شيدت حديثاً، بشدة متناهية، ولولا أن الناس هبوا لنجدتها بسرعة، لكانوا استولوا عليها بكل تأكيد، ولقد كان روبرت دوق نورماندي هو الذي جاء لنجدتها مع رجاله، وقد قتل وأسر عدداً كبيراً من الأعداء، وأرغم الباقي على الفرار، وفي مناسبة أخرى، طلب الأتراك مبارزة رجالنا بالقتال، حتى أن بعضهم ترجلوا عن ظهور خيولهم، وأظهروا اخلاصاً غير معتاد، ودعوا الآخرين لحذو حذوهم، وعندما كانوا يتبارزون على هذه الصورة، حمل تانكرد من الباب الشرقي، وهاجم الأعداء قبل أن يتمكنوا من معاودة امتطاء خيولهم، وقتل ستة منهم، في حين نجا الباقون.

العذاب الذي سمح الرب بنزوله على الحجاج بسبب آثامهم

وعانت المدينة في الوقت نفسه معاناة هائلة من المجاعة، وكان هذا عقاباً لآثام الحجاج، بسبب أن كثيراً منهم، نزلوا من فوق الأسوار وهم مرعوبين، وتدلوا بوساطة الحبال، أو وضعوا أنفسهم داخل سلال، وقد تخلوا عن رفاقهم، ونجوا إلى شاطىء البحر، وكان هؤلاء الذين تشككوا بجود الرب وبرحمته، ليسوا فقط من عامة الناس ومن الفقراء، بل أيضاً من النبلاء ومن ذوي الأنساب العالية، من أمثال وليم دي غرانتمينيل Grantmenil، من أبوليا، مع أخيه ألبيرك Alberic، ووليم النجار مع أخيه غي، ولامبرت، وأعداد كبيرة أخرى معهم، وإلى جانب

هؤلاء، كان هناك بعضاً ممن يئسوا من العون، فالتحقوا بالعدو، وتخلوا عن الإيمان بالمسيح، وفكر آخرون بالفرار بشكل جدي، لكنهم أعيدوا إلى الثبات من قبل أسقف لى بوي، وبوهيموند، الذي جعلهم يقسمون أنهم لن يتخلوا عن قضية المسيح، حتى انتهاء المعركة، التي سوف تجرى في وقت أو آخر.

وكانت المجاعة قاسية في المدينة إلى حد أن الناس، التفتوا، بسبب قسوة المجاعة المتناهية إلى أعمال وتصرفات مخجلة: فلقد بيعت الدجاجة بمبلغ خمسة عشر شلنا، وبيعت البيضة بشلنين، والجوزة ببنس واحد، ولقد أكلوا الأشجار، والأشواك، وجلود ولحوم الخيول والحمير، والبغال، والكلاب، وباتت الأشياء القذرة جداً، لذيذة للغاية، وبات أمراً محزناً أن ترى رجالاً كانوا من قبل أقوياء، ومتميزين بنبالة مولدهم، يتكئون لضعف أجسادهم على عصي، وباتوا غير قادرين على استخدام أسلحتهم، وفي الوقت نفسه تولى وليم دي غرانتمينيل، وستيفن كونت أوف تشارترز مع الآخرين الذين انهزموا معهم، الحديث إلى الجميع عما عانى منه الصليبيون في أنطاكية، ولكي يسوغوا فرارهم، وصفوا هذه المعاناة بشكل مضخم عدة مرات بعيداً عن الحقيقة، وقد وصلوا إلى الإمبراطور، الذي كان مع أربعين ألفاً من الجنود اللاتين، إلى جانب آخرين جنّدهم من بلدان مختلفة، وكان على طريقه لمساعدة الصليبيين في أنطاكية، ونصحوه بعدم الذهاب، وقالوا له حول هذا الشأن:« أيها الامبراطور الأقوى، عندما استولى قادتك المخلصون على أنطاكية، اعتقدوا أن الحرب قد انتهت، لكن هذه الغلطة الأخيرة كانت أسوأ من الأولى، فما أن مرّ يوم واحد على الاستيلاء على المدينة، حتى قدم فجأة كربوغا الأمير الأعظم قوة من فارس، مع قوات عملاقة من الشرق، مامن انسان يمكنه تعدادها، وألقى الحصار على المدينة نفسها، وذلك في الوقت الذي كان فيه قومنا مقهورين من قبل

الجوع، والبرد، والحر، وحد السيف، إلى حد قيل فيه إنهم لايمتلكون مؤناً في المدينة كافية حتى ليوم واحد، ولذلك قمنا نحن الذين هنا، عندما شاهدنا قضية إخواننا غير ناجحة، بتقديم النصيحة إليهم مراراً، بالنظر نحو سلامتهم الشخصية، وبالتخلي عن هذه المغامرة المستحيلة، وبالاقدام على الأخذ بالفرار من دون تأخير، لكن عندما لم نتمكن من زحزحتهم عن نواياهم، شرعنا نفكر حول سلامتنا، والآن إذا كان يرضيك، وإذا كان هذا هو موقف مستشاريك، لاتتابعن التقدم، خشية أن يغرق الذين معك بالخطر نفسه، ولسوف يؤكد تاتين وزيرك الحكيم والمخلص صدق ماقلناه، لأنه شاهد ضعف رجالنا، وانسحب من بينهم شخصياً حتى يتمكن من تبيان هذه الأشياء لجلالتك».

وسمع الامبراطور هذه الكلمات، وقام بناء على نصيحتهم بتسريح فرقه، وعاد وهو يبكي إلى قصره، وعندما وصلت أخبار عودة الامبراطور إلى أنطاكية، ضاعفت نصر المسلمين وزادت من ضعف الصليبيين، وكانت المجاعة هائلة بين صفوف شعب الرب، وكذلك حدة الأعداء في كل من الداخل والخارج، حتى بدا أنه ليس هناك مخرج أو علاج وتهدئة، وكان الشيوخ والشباب غارقين في الكارثة نفسها، ولم يكن بامكان طرف تقديم المواساة إلى الطرف الآخر، وقد فكروا حول زوجاتهم وأولادهم، وأهليهم الذين تركوهم في الوطن، للقدوم والقيام بالحج من أجل المسيح، وتذمروا تجاه عدم رضا الرب القدير، الذي لم يتوفر لديه احترام نحو آلامهم، بل تركهم وكأنهم شعب غير معروف من قبله، ليقعوا في أيدي أعدائهم.

المواساة التي أضفاها الرب على الحجاج المعذبين

ونظر الرب أخيراً نحو شعبه المعذب، وبعث إليه المواساة من كرسي رحمته، فقد جاء حاج مسكين، كان كاهنا بين أفراد الجيش، إلى الحجاج والأمراء الغربيين، وخاطبهم بالكلمات التالية:« اسمعوا ياإخواني

ويأأصدقائي الأعزاء، خبر الرؤيا التي أنا رأيتها، فلقد عزمت على امضاء الليل في كنيسة أم الرب، وأن أصلي إلى الرب حتى يخفف من آلامنا، وكنت في وضع لاأدري أكنت فيه نصف نائم، أو مستيقظ، الرب وحده يعرف، فلقد رأيت ربنا يسوع المسيح، دون أن أعرفه، وكانت أمه المباركة حاضرة أيضاً، مع بطرس أمير الرسل، وعندما نظرت إليهم، قال الرب لي: ألاتعرفني؟ فأجبته: لاياسيدي، وفي الوقت نفسه، أضاء صليب فوق رأسه، وعاد ثانية فسألني السؤال نفسه، ولسؤاله أجبت: مولاي لئن فهمت بشكل صحيح من علامة الصليب فوق رأسك، فإني أرى أنك مخلصنا، وعلى هذا ردّ قائلاً: إن الأمر كما قلت، ووقتها ألقيت بنفسي على قدميه، مبللاً ركبتيه بدموعي وقلت له: مولاي، يامولاي، ارحمنا، ارحم شعبك، يامولاي ساعدنا، وعندها أجاب الرب قائلاً: لقد ساعدتكم حتى الآن، ذلك أنني سمحت لكم بالاستيلاء على نيقية، وحميتكم في كثير من المعارك، وفي ظل توجيهي تمكنتم من الاستيلاء على أنطاكية والسيطرة عليها، واستجبت لرغباتكم أثناء الحصار نفسه، لكنكم كنتم كافرين لنعمتي، وتمردتم عليّ، فظلمكم وطغيانكم الذي صدر عنكم صار شيئاً كثيراً، ولقد أثرتم غضبي بالأضرار التي ألحقها شعبكم بي، وذلك باقترافكم الزنا مع نساء غريبات، فلقد وصلت آثامكم إلى السماء ، وجعلتني أشيح بعيني عنكم، إنني سوف أجازيكم على كفرانكم للنعمة، ولن أستثني فجوركم وفسوقكم، ولن أغفل عنه»، ثم سقطت أم الرحمة وبطرس على قدمي المخلص الرحيم، وحاولا تسكين غضبه وتوسلا إليه قائلين:« مولانا، لسنين كثيرة تملكت الشعوب الكافرة ذلك البيت، الذي كان بيت الصلاة، وقد دنسوه بشكل مهين، واستحوذوا عليه، فهل أنتم، لذنوب قلة، مقبلون في غضبكم على تدمير جميع المسيحيين، الذين حرروا بيتك بدمهم؟ لتكن لديك رحمة يامولانا، رحمة يامولانا على شعبك، ولاتسلم ميراثك للدمار، ولاتدع الأمم تنتصر عليهم».

وأصغى الأعظم قداسة إلى صلوات أمه والرسول، وابتسم بلطف وقال لي هذه الكلمات: اذهب واخبر شعبي ليتولى إزالة كل فسوق ودنس من بين صفوفه، وأن يغسل عاره بدموعه، وأن يعود إليّ، وعند ذلك سوف أعود إليه، وخلال خمسة أيام سوف أقدم له مساعدة في وقتها، بسبب أنني أنا رب الرحمة، وعلى أفراد شعبي أن يغنوا في الوقت نفسه: أعداؤنا اجتمعوا، وتفاخروا بقوتهم، أزل أنت قدرتهم، يارب، وفرقهم حتى يعرفوا أنه لايوجد أحد يقاتل من أجلهم، إلاّ أنت فقط، يارب»، وعندما فرغ الكاهن انصرف الشعب كله إلى النحيب، وحث أحدهم الآخر على الاعتراف بذنوبه، وبات بإمكان كل انسان رؤية الدموع تجري على خدودهم، والناس من جميع الأعمار يحملون الرماد فوق رؤوسهم، وهم يسيرون حفاة إلى الكنائس للصلاة، وللتوبة، ولإلتماس العون من عليين، ثم قام بوهيموند— وكان رجلاً حكيما وعاقلاً— فحث كل واحد منهم على أن يربط نفسه بقسم ليتعهد فيه بعدم التخلي عن عصبة الحجاج حتى يقبلوا الضريح المقدس للرب، وفقاً للنية الأصيلة لحجهم، وجرى تلقي النصيحة من قبل الجميع، وقد أدوا جميعاً القسم، وبذلك قويت نشاطاتهم بشكل رائع.

كيف وجدوا حربة المخلص

وفي حوالي الوقت نفسه، جاء كاهن اسمه بطرس من بروفانس إلى أسقف لى بوي وكونت طولوز، وأكد لهما بأن الرسول القديس أندرو قد ظهر له في المنام، وبإخلاص أمره ثلاث مرات أو أربع، بالذهاب إلى الأمراء، بأنهم سوف يجدون في كنيسة أمير الرسل الحربة التي بها جرى طعن جنب المخلص، وقد أوضح المعطيات وبين المكان الذي يمكن أن توجد فيه وحدده، وبناء عليه قدم إلى الأمراء، كما أمر، وأخبرهم بكل شيء، وأضاف بأن الرسول استخدم تهديدات كثيرة، إذا لم يقم بالإطاعة، وأنه كان مرغماً على ايصال الرسالة، خشية منه أن يقتل،

وعندما جرى ايصال هذا الخبر إلى بقية الأمراء، اجتمعوا مع بعضهم في المكان الذي حدد إليهم في الكنيسة، وبعدما حفروا الأرض قليلاً، وجدوا الحربة كما جرى إخبارهم، وسمع الناس بهذا الاكتشاف، فتدفقوا على الكنيسة، وتعبدوا الأثر الثمين المقدس، وبدأوا يستردون أنفاسهم مما كانوا يعانون منه، وأخذوا يسيرون بجرأة أعظم في طرق الرب.

كيف حشدت العساكر وزحفت وهي على تعبئة قتالية من المدينة

وعلى هذا اجتمع الأمراء والناس مع بعضهم، وقد وجدوا أن الرب أنزل عليهم إلهاماً جديداً وفضلاً، ولذلك قرروا بالاجماع إعلام كربوغا أنهم سوف يقاتلونه في يوم الغد، وحمل هذه الرسالة إليه بطرس الناسك، وعند الفجر تدفقت جميع العساكر على الكنائس لسماع القداسات، وطلب الكهنة وقتها من الحجاج الاعتراف بذنوبهم، وبتحصين أنفسهم بالمشاركة بتناول جسد المسيح ودمه، ولذلك زحفوا بجرأة ضد أعداء الصليب، وبناء عليه طلبوا في الثامن والعشرين من حزيران العون الرباني، وعبأوا جيشهم إلى فرق، وعينوا لكل فرقة خط عملياتها.

وعينوا لقيادة الفرقة الأولى هيوج الكبير، وأنسلم ريبوغيسمونت Riburgismont مع عدد كبير آخر، نحن لانتذكر أسماءهم، واقتاد الفرقة الثانية كونت فلاندرز، وروبرت الفيرزون Frison ، مع آخرين كانوا قد تبعوا رايته منذ البداية، وقاد روبرت دوق نورماندي، وستيفن كونت أوف ألبمارل Albemarle مع نبلاء آخرين تابعين لجماعتهم، الفرقة الثالثة، وقاد الفرقة الرابعة أدهمر أسقف لى بوي، وكونت طولوز مع أتباعهما، الذين حملوا معهم حربة الرب، واقتيدت الفرقة الخامسة من قبل رينارد كونت أوف تول، وبطرس دي ستادني Stadeneis ، وغارنر دي غري وهنري دي آشي، ووولتر دي

دومدارت Domedart مع آخرين كثر، وقاد الفرقة السادسة رينبولد كونت أوف هورني Horinges ، ولويس دي ماسكون Mascons، ولامبرت بن كونون دي مونت أكيوت، وكان قائد الفرقة السابعة الدوق غودفري مع أخيه يوستاس، وكان الفارس النبيل تانكرد قائد الفرقة الثامنة، أما الفرقة التاسعة فقادها هيوج كونت أوف سانت بول مع ابنه ايغلران Egelran ، وتوماس دي فيريا Feria، وبلدوين دي بورغ، وروبرت فتز—جيرارد، ورينولد أوف بوفياس Beauvais، وغالو دي شومنت Chaumont ، وقاد الفرقة العاشرة روترو Rotrou كونت أوف بيرشي Perche ، وايفرارد دي بوساك، ودرغو دي مونسي Monci ، ورالف فتز— غودفري، وكونان أوف بريتاني، وقاد الفرقة الحادية عشرة إيسوارد Isoard كونت أوف ديي Die، وريموند بيليت Pilet ، وغاستوس أوف بايترني Bi-terne ، وجيرارد دي روسلين، ووليم دي مونت برسولان Pres-sulan ، ووليم أماني Amane ، وكانت الفرقة الثانية عشرة هي الأقوى من الفرق الأخرى، وقد قادها بوهيموند، الذي كانت وظيفته تقديم العون إلى أية واحدة من الفرق الأخرى تتعرض للضغط الشديد من قبل الأعداء.

وكان كونت طولوز في وضع صحي سيء، ولذلك ترك ليتولى حراسة المدينة، ولحماية الضعفاء والجرحى، وذلك خشية أن يقوم الأتراك الذين كانوا مايزالون في القلعة العليا بمهاجمتهم أثناء غياب الأمراء، واختلط مع مختلف الفرق، أثناء زحفها، الكهنة، والشمامسة، وكان من الممكن مشاهدتهم في أرديتهم البيضاء، وهم يحملون في أيديهم شارة الصليب، أما الذين بقيوا في المدينة، فلبسوا ثيابهم المقدسة، وصعدوا فوق أسوار المدينة، وقدموا الصلوات من أجل حماية شعب الرب، وأثناء خروج جيشنا وتجاوزه للأسوار تساقط عليه ندى لطيفاً،

وقد نزل من عليين على رجاله، وبدا ذلك وكأنه أرسل من قبل الرب القدير لمباركة أسلحتهم، وشعر بتأثيره ليس فقط الرجال، بل الخيول أيضاً، التي مع أنها لم تأكل شيئاً لأيام كثيرة سوى أوراق الأشجار وأغصانها، تمكنت في ذلك اليوم من التفوق على فرسان العدو في كل من السرعة والقوة.

المعركة الرهيبة والنصر الرائع التي أعقبها

وفي الوقت نفسه لدى رؤية كربوغا الصليبيين يخرجون من المدينة، قام بصف قواته وتعبئتها للقتال، تحت قيادة تسعة وعشرين أميراً وملكاً أسماؤهم كما يلي: الملك رضوان، والأمير سليمان، والأمير سيف الدين، والأمير دقاق، والأمير عين الدولة، والأمير محمد، والأمير غياث، وقطب الدين، ومجد الدولة، وطولون، وبولق، وبرسق، والأمير باقي، ويغي سيان، وشمس الدولة، والأمير جناح الدولة، والأمير طغتكين، والأمير وثاب، والأمير سكمان، وبلدق، والأمير الياس، وشمس الدين، وجكرش، والأمير يونس، وأرسلان تاش، وأمير جاولي، والأمير تقاق، والأمير موسى(١)، وحث كربوغا هؤلاء الأمراء جميعاً، ورجاهم إذا كانوا يحبونه أن يبذلوا جهودهم ويظهروا شجاعتهم، وأن يستخفوا بالمقاومة التي يبديها هؤلاء الرعاع، الجائعين، والبلهاء وغير المجربين، أي الجنود الصليبيين، علاوة على ذلك قدم(قلج أرسلان بن) سليمان أمير نيقية مساعدته الفعالة للقوات المعبأة، وميز بين الذين سيزحفون في المقدمة والذين سيبقون في الساقة، واحتل أمراؤنا في الوقت نفسه جميع السهول القائمة أمام المدينة والجبال امتداداً حتى مسافة قرابة الميلين من المدينة، وعندما زعق البوق زحفوا نحو الأمام لمواجهة الأعداء، وحملت الفرق الثلاث الأولى عليهم بالسيوف والرماح، وقد تقدم عليهم

١— تشوهت الأسماء إلى حد استحالة الضبط، والقراءة المقدمة تقديرية، اعتماداً على ماتوفر بالمصادر العربية.

الرجالة، الذين كان معهم القسي الطويلة، والقسي الزيّارة، ثم فتحوا الطريق أمام الحملة الثقيلة للفرسان الذين كانوا يتبعونهم، وبعد مضي بعض الوقت كانت الفرق كلها، قد اشتبكت بالقتال، باستثناء فرقة بوهيموند، ونتيجة لاشتباكهم مع الأتراك فقدوا أعداداً من رجالهم، وبدأوا يضطربون ويفرون، عندما وصل(قلج أرسلان بن) سليمان من المناطق القريبة من البحر، مع ألفين من الرجال، وقد حمل على بوهيموند بعنف شديد من الساقة، وأرسل رجاله سحباً من النشاب، غطوا بها الصفوف تقريباً، ثم وضعوا قسيهم جانباً، وتابعوا القتال بالسيوف والدبابيس، بعنف بلغ حداً كان بوهيموند مرغماً فيه على التراجع أمامهم، لولا قدوم غودفري وتانكرد، حيث قاتلا بنشاط يستحق الثناء، وحولا تيار الدم والقتل نحو العدو، ثم لجأ وقتها(قلج أرسلان بن) سليمان إلى وسيلة أخرى، حيث ألقى النار في بعض القش والأعشاب، واستعد لاستغلال ذلك، وصحيح أنه توفر القليل من اللهب، لكن كل شيء تغطى بدخان كثيف، وقتل الأعداء تحت هذا الغطاء من الدخان عدداً من رجالتنا، إنما بعد وقت قصير، غيّر الرب الذي يتحكم باتجاه الريح، اتجاه الدخان نحو الأعداء، الذين لم يعودوا يبصرون واختنقوا به، ولذلك انهزموا، وقد لحق بهم الجند الصليبي، وطردهم بشدة بالغة نحو الخلف، وألقى بهم فوق صفوفهم المضطربة، وقتلهم من دون رحمة، ولاحقهم حتى خيامهم، حيث عرفوا بأن هناك قد اجتمعت قواهم الرئيسية، وقاومهم الترك هناك بكل ماامتلكوا من شجاعة، وقام قتال رهيب، وصدرت الأصوات عن الخوذ البرونزية، مثل الأصوات التي تصدر عن قرع السندان، وتطاير الشرر من قرع الفولاذ بالفولاذ، وكانت أصوات السيوف مثل أصوات الرعد، وتناثرت أدمغة الناس على الأرض، وتحطمت الدروع والسوابغ إلى شظايا، وتدفقت أحشاء الذين كانوا يرتدونهم فوق الأرض، وتصببت الخيول عرقاً من شدة التعب، ولم تنل لحظة توقف من قبل ركابها،

واشتبك الجيشان الآن مع بعضهما، وتقاتل بعضهم يداً بيد، ورجلاً برجل، وتكادموا بأجسادهم، وتصارع واحدهم مع الآخر، وتابعوا الصراع المميت، وساد الشك الآن حول إلى جانب من سيكون النصر، لكن حدث فجأة أن شوهد جيش كان مخفيا، ينزل من الجبال، وكان مقاتلوه يمتطون خيولاً بيضاء، ويحملون أعلاماً بيضاء في أيديهم، وعرف الأمراء من بينهم القديس جرجس، والقديس ديمتريوس، والقديس ميركوريوس Mercurius وبعث هذا المشهد الذي أرعب المسلمين، آمالاً جديدة في نفوس الصليبيين.

ولم يرهم الجميع، بل فقط الذين سمح الرب لهم بمشاهدة مقاصده السرية، وأدى ذلك إلى اضطراب صفوف الترك، ومن ثم الانتصار المباشر لأعدائهم، لأن الأتراك— كما قلنا— ماأن شاهدوا هذه الشارة، حتى لاذوا بالفرار بسرعة، مخلفين وراءهم سلعاً كثيرة ثمينة، ورأى بعض رجالنا أيضاً ملائكة يطيرون في الهواء، ويرسلون صواعق محرقة على الأتراك الفارين، وكان كربوغا قد بقي منعزلاً عن الجيش منذ بداية المعركة، واتخذ موقعه في مكان مرتفع، وعندما شاهد فرار فرقه، تخلى عن عساكره وفرّ حتى ماوراء الفرات، وقد غير خيوله، فعندما كان يشعر بتعب الذي يمتطيه كان يغيره بواحد أحسن حتى يضمن تراجعه الشخصي، وكان قادتنا يدركون أن خيولهم لن تستطيع المطاردة والمثابرة، لذلك تخلوا عن المطاردة البعيدة، وذلك باستثناء تانكرد وعدد قليل آخر طاردوا الأعداء ودمروهم حتى غياب الشمس، لأن التجلي الرباني شحنهم بخوف عظيم، بلغ حداً أنهم لم يعودوا يستطيعون مقاومة حملاتنا وقتالنا، ولاالدفاع عن أنفسهم وحمايتها من سيوفنا، ولذلك بدا بالنسبة إليهم عشرة من رجالنا يساوون عشرة آلاف.

الغنائم الثمينة للأتراك الذين هربوا والخيمة الرائعة

ومع انتهاء هذه المعركة المجيدة، عاد قادتنا إلى معسكر الأعداء،

حيث وجدوا كميات هائلة من الثروات من ذهب وفضة، ومجوهرات، وملابس حريرية، وأواني لايمكن تقديرها بثمن، وكانت الغنائم من الكثرة بمكان أنهم لم يتمكنوا من تعدادها أو تقديرها، وكان هناك أيضاً عدداً كبيراً من الخيول، والمواشي، وقطعان الأغنام، والميرة، والرقيق من الغلمان والفتيات، والخيام والسرادقات، وقد حملوها كلها إلى معسكرهم، وكان بين الأشياء الأخرى خيمة رائعة، مبنية مثل مدينة، مع أبراج، وأسوار، وشرافات، منسوجة من مختلف الألوان من أحسن أنواع الحرير، ومن مركزها، الذي شكل القاعة الرئيسية، تفرعت مقاصير على جميع الجوانب شكلت مايشبه الشوارع، يمكن فيها لألفي رجل أن يجلسوا بكل راحة، وبعد هذا، قام الأتراك الذين كانوا في القلعة العليا بالاستسلام لقادتنا، وجاء ذلك بعدما رأوا حلفاءهم قد فروا، وكان استسلامهم على شرط أنهم يستطيعون الذهاب إلى أي مكان يرغبون به، وحدثت هذه الأمور في اليوم الثامن والعشرين من حزيران لعام ١٠٩٨م.

ترميم الكنائس ووصف أنطاكية

وبناء عليه عاد قادتنا من المعركة، وعادت المدينة إلى حالة الهدوء، وبدا لهم جميعاً ولاسيما إلى أسقف لى بوي، أن من المناسب، إعادة الكنيسة الرئيسية التي شيدت فيما مضى تشريفاً لأمير الرسل، مع بقية كنائس المدينة، إلى سالف مجدها، وأنه يتوجب تعيين عاملين دينيين فيها يتولون عبادة الرب ليلاً ونهاراً، كما أنهم أعادوا البطريرك يوحنا إلى منصبه الرفيع السالف، وعينوا أساقفة لكل المدن المجاورة، وذلك حيثما كان من قبل أساقفة، وأعطوا سلطة المدينة إلى بوهيموند، الذي جرت العادة على دعوته بلقب أمير، أو بالمقدم الأول والأعلى بين رجاله، وقد بدأوا الآن يعتادون على استخدام اصطلاح أمير أنطاكية.

وكانت المدينة نفسها جميلة جداً، ومحصنة بشكل جيد، وتمتلك

بداخلها أربع تلال مرتفعة، فوق الأولى منهن قلعة مشرفة على المدينة كلها، وبنيت المدينة في الأجزاء المنخفضة بشكل نظامي، وهي مطوقة بسورين: السور الداخلي مرتفع وواسع، في دائرته أربعمائة وخمسين برجاً محاطة بشرافات جميلة، ولم يكن السور الخارجي مرتفعاً كثيراً، لكنه كان متميزاً بقدمه، وتحتوي أنطاكية على ثلاثمائة وأربعين كنيسة، ويوجد تحت رئاسة بطريركها مائة وثلاثة وخمسين أسقفاً، والمدينة محاطة من جهة الشرق بأربع تلال، ويوجد من جهة الغرب النهر، الذي يسميه بعضهم نهر فرفر، وبعضهم نهر الأرنط، وأسهم في بناء المدينة خمسة وثمانون ملكاً، ومن الأول منهم وهو أنطيخوس نالت اسمها، واستولى الصليبيون عليها بعد حصار استمر ثمانية أشهر مع يوم واحد، وبعد الاستيلاء عليها، حاصرها المسلمون ثانية لمدة ثلاثة أسابيع، قبل خروج الصليبيين منها والقتال معهم، ومكث المنتصرون الآن في المدينة لمدة خمسة أشهر وتسعة أيام، خلالها أصيبوا بموتان، غير معروف سببه، لكنه كان هائلاً، حتى أنه خلال عدة أيام مات خمسين ألفاً من الجنسين، وكان من بين الضحايا أدهمر، أسقف لى بوي، الذي رعى الشعب كأب وكحاكم، وقد دفن وسط نحيب الجيش كله في كنيسة أمير الرسل، فوق البقعة التي تمّ العثور فيها على حربة مخلصنا، وسقط بين الضحايا هنري دي أسكي، ورينالد دي آرم باخ Armesbach ، وكانا رجلان متميزان لأصالة مولدهما، ولكي يتجنب بقية الأمراء الخطر نفسه اتفقوا على التفرق على شرط الاجتماع ثانية في الأول من تشرين الأول، وذلك عندما يكون كل من الرجال والخيول قد استردوا قواهم، ومن ثم اكمال مابقي عليهم عمله للوفاء بعهد حجهم، وزحف ريموند الذي لقبه بايلت Pilet مع عساكره واستولى على قلعة اسمها تل منس، ومن هناك زحف إلى المعرة، التي هي مدينة مليئة بالمسلمين، وخرج السكان للتصدي له، وهزموا في البداية، لكنهم نالوا في النهاية النصر، وقتلوا عدداً كبيراً من الصليبيين.

كيف أرسل هيوج الكبير إلى الامبراطور لكنه لم يعد

وأثناء حدوث هذه الأمور، أرسل هيوج الكبير من قبل الأمراء، إلى الامبراطور ألكسيوس، وقد أساء كثيراً إلى شهرته الماضية، بعدم العودة شخصياً، وبعدم إرساله أي جواب إلى الذين أرسلوه، ناسياً مصداقية بيت شعر جوفينال Juvenal :

..... الجريمة الأكبر هي للشخص

الذي هو الأكبر

وفي الوقت نفسه تولى كونت طولوز حصار مدينة البارة والاستيلاء عليها، وتدبر رسم بطرس أوف نربون أسقفاً هناك، ثم بدأ الأمراء من اليوم الأول من تشرين أول بالتجمع والاحتشاد مع بعضهم وفقاً لإتفاقهم، واستعدوا للزحف إلى القدس، وفي الثامن والعشرين من تشرين زحفوا إلى المعرة، وألقوا الحصار عليها، وتقع هذه المدينة على بعد سفر ثلاثة أيام عن أنطاكية، وكان سكانها متشامخين بسبب غناهم، ذلك أنهم ثبتوا صلباناً على أبراج وأسوار المدينة بعدما لوثوها بالبصاق عليها، وبطرائق أخرى، وذلك تحديا للصليبيين، وقد غضب رجالنا لهذا، وبعد اشتباكات استمرت عدة أيام، نصبوا السلالم، وتسلقوا فوق الأسوار، واستولوا على المدينة عنوة، لكنهم لم يجدوا سكاناً فيها، ونتيجة لذلك استولوا على كنوزها من دون معارضة أو ضجة، فقد كان السكان قد فروا إلى كهوف تحت الأرض، وبذلك بقيوا سالمين لبعض الوقت، لكن في الصباح أشعل رجالنا نيراناً عند مداخل الكهوف، وأرغموهم على الاستسلام، فقطعوا رؤوس بعضهم، وألقوا بالآخرين في السجن، وفي الحادي عشر من كانون الأول مات وليم أسقف أوراسيا هناك، وكان رجلاً متديناً ومستقيما، وكان يخاف الرب، وقد أمضى الحجاج في تلك المدينة شهراً واحداً وأربعة أيام.